

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ

٤



شرح
ثلاثين الأصول

فضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

شَحْ
ثَلَاثَةُ الْأَصُولِ

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية. ١٤٣٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

شرح ثلاثة أصول / محمد بن صالح العثيمين؛ -الرياض، ١٤٣٥هـ

١٧٦ ص ٢٤×١٧ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ٤)

ردمك: ٨-١٠-٨١٦٣-٦٠٣-٩٧٨

١ - العقيدة الإسلامية. أ - العنوان

ب- السلسلة

١٤٣٥ / ٧٠٢٣

ديوي ٢٤٠

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٧٠٢٣

ردمك: ٨-١٠-٨١٦٣-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

لِمُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعِثَمِينَ الْخَيْرِيَّةِ
إِذَا لَمْ يَأْرَدْ طَبْعُ الْكِتَابِ لِتَوَزِيْعِهِ خَيْرِيًّا بَعْدَ مَرَاجَعَةِ الْمُؤَسَّسَةِ

الطبعة الحادية والعشرون

١٤٤٥هـ

يُطْلَبُ الْكِتَابُ مِنْ:

مُؤَسَّسَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعِثَمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

المملكة العربية السعودية

القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص. ب. ١٩٢٩

هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - فاكس: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩

جوال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ - جوال المبيعات: ٠٥٥٠٧٣٣٧٦٦

www.binothaimeen.net

info@binothaimeen.com



الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية

دار الدرة الدولية للطباعة والتوزيع

١٣٥ شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - الحي الثامن - بجوار مدارس المنهل الخاصة.

هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

شرح ثلاثين الأصول

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه والمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ؛ فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَّواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَلَقَدْ كَانَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْجَلِيلَةِ لَصَاحِبِ الْفَضِيلَةِ الْعَلَّامَةِ شَيْخِنَا الْوَالِدِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-، عِنَايَتُهُ الْبَالِغَةُ بِتَدْرِيسِ مَثُونِ الْعَقِيدَةِ وَشَرْحِهَا وَالتَّعْلِيقِ عَلَيْهَا وَتَقْرِيبِهَا لَطُلَّابِ الْعِلْمِ وَالدَّارِسِينَ، وَذَلِكَ لِبَيَانِ مَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ وَتَقْرِيرِ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ وَتَرْسِيخِهَا.

وَمِنْ حِرْصِهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي هَذَا الْمَقَامِ تَنَاوُلَ -بِالشَّرْحِ وَالتَّقْرِيرِ- رِسَالَةَ (ثَلَاثَةِ الْأُصُولِ) الَّتِي أَلْفَهَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْمَتَوَقَّى عَامَ (١٢٠٦ هـ)^(١)، تَغَمَّدَهُ اللَّهُ بِوِاسِعِ رَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ وَأَسْكَنَهُ فَيْسَحَ جَنَّاتِهِ، وَجَزَّاهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ.

(١) ترجم له الكثيرون ، انظر: الأعلام للزركلي (٦/ ٢٥٧)، عنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر (٦/ ١)، روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام لابن غنّام (١/ ٢٠٨، ٢/ ٩٠٠).

وقد قام الشيخ / فهد بن ناصر السليمان - أثابه الله تعالى - بتفريغ المادة الصوتية وإعدادها للنشر، وعرضها على فضيلة شيخنا الشارح - رحمه الله تعالى -، ثم طبع الكتاب عام (١٤١٤ هـ)، وتوالت طبعته - بفضل الله تعالى - بعد ذلك.

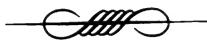
نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم؛ نافعاً لعباده، وأن يجزي فضيلة شيخنا عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ويضاعف له المثوبة والأجر، ويعلّي درجته في المهديين، إنه سميع قريب مجيب.

وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده ورسوله، خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيد الأولين والآخرين، نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

القسم العلمي

في مؤسسه الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

٢٦ محرم ١٤٣٨ هـ



نُبذة مُختصرة عَنْ

فَضِيلَةَ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ

١٣٤٧ - ١٤٢١ هـ

نَسَبُهُ وَمَوْلَدُهُ:

هُوَ صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ الشَّيْخُ الْعَالِمُ الْمُحَقِّقُ، الْفَقِيهَ الْمَفْسِّرُ، الْوَرَعَ الزَّاهِدُ، مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ آلِ عُثَيْمِينَ مِنَ الْوَهْبَةِ مِنْ بَنِي تَيْمِيمٍ.

وُلِدَ فِي لَيْلَةِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ، عَامَ (١٣٤٧ هـ) فِي عُنَيْزَةِ - إِحْدَى مَدِينِ الْقَصِيمِ - فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ.

نَشَأَتُهُ الْعِلْمِيَّةُ:

أَلْحَقَهُ وَالِدُهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - لِيَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ عِنْدَ جَدِّهِ مِنْ جِهَةِ أُمِّهِ الْمَعْلَمِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سُلَيْمَانَ الدَّامِغِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -، ثُمَّ تَعَلَّمَ الْكِتَابَةَ، وَشَيْئًا مِنَ الْحِسَابِ، وَالنُّصُوصِ الْأَدَبِيَّةِ؛ فِي مَدْرَسَةِ الْأُسْتَاذِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صَالِحِ الدَّامِغِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَلْتَحِقَ بِمَدْرَسَةِ الْمَعْلَمِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الشَّحِيحَتَانِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - حَيْثُ حَفِظَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ عِنْدَهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ وَلَمَّا يَتَجَاوَزَ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ بَعْدُ.

وَبِتَوْجِيهِ مِنْ وَالِدِهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - أَقْبَلَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ، وَكَانَ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - يُدْرَسُ الْعُلُومَ

الشَّرْعِيَّةَ وَالْعَرَبِيَّةَ فِي الْجَامِعِ الْكَبِيرِ بَعْنِيَّةً، وَقَدْ رَتَّبَ اثْنَيْنِ ^(١) مِنْ طَلَبْتِهِ الْكِبَارِ لِتَدْرِيسِ الْمُبْتَدِئِينَ مِنَ الطَّلَبَةِ، فَاَنْضَمَّ الشَّيْخُ إِلَى حَلَقَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَطْوَعِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- حَتَّى أَدْرَكَ مِنَ الْعِلْمِ -فِي التَّوْحِيدِ، وَالْفِقْهِ، وَالنَّحْوِ- مَا أَدْرَكَ.

ثُمَّ جَلَسَ فِي حَلَقَةِ شَيْخِهِ الْعَلَّامَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَدَرَسَ عَلَيْهِ فِي التَّفْسِيرِ، وَالْحَدِيثِ، وَالسِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَالتَّوْحِيدِ، وَالْفِقْهِ، وَالْأُصُولِ، وَالْفَرَائِضِ، وَالنَّحْوِ، وَحَفِظَ مُحْتَصِرَاتِ الْمُتُونِ فِي هَذِهِ الْعُلُومِ.

وَيُعَدُّ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- هُوَ شَيْخُهُ الْأَوَّلُ؛ إِذْ أَخَذَ عَنْهُ الْعِلْمَ -مَعْرِفَةً وَطَرِيقَةً- أَكْثَرَ مِمَّا أَخَذَ عَنْ غَيْرِهِ، وَتَأَثَّرَ بِمَنْهَجِهِ وَتَأَصَّلِيهِ، وَطَرِيقَةِ تَدْرِيسِهِ، وَاتَّبَاعِهِ لِلدَّلِيلِ.

وَعِنْدَمَا كَانَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَلِيٍّ بْنُ عُدَوَانَ -رَحِمَهُ اللَّهُ- قَاضِيًا فِي عُنْيَةِ قَرَأَ عَلَيْهِ فِي عِلْمِ الْفَرَائِضِ، كَمَا قَرَأَ عَلَى الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَفِيفِي -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي النَّحْوِ وَالْبَلَاغَةِ أَثْنَاءَ وُجُودِهِ مُدَرِّسًا فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ.

وَلَمَّا فُتِحَ الْمَعْهَدُ الْعِلْمِيُّ فِي الرِّيَاضِ أَشَارَ عَلَيْهِ بَعْضُ إِخْوَانِهِ ^(٢) أَنْ يَلْتَحِقَ بِهِ، فَاسْتَأْذَنَ شَيْخَهُ الْعَلَّامَةَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فَأَذِنَ لَهُ، وَالتَّحَقَّ بِالْمَعْهَدِ عَامِي (١٣٧٢-١٣٧٣ هـ).

وَلَقَدْ انْتَفَعَ -خِلَالَ السَّنَتَيْنِ اللَّتَيْنِ انْتَضَمَ فِيهِمَا فِي مَعْهَدِ الرِّيَاضِ الْعِلْمِيِّ- بِالْعُلَمَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يُدَرِّسُونَ فِيهِ حِينَئِذٍ، وَمِنْهُمْ: الْعَلَّامَةُ الْمُفَسِّرُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ السَّنْفِيَّيُّ، وَالشَّيْخُ الْفَقِيه عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ نَاصِرِ بْنِ رَشِيدٍ، وَالشَّيْخُ الْمُحَدِّثُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْإِفْرِيْقِيُّ -رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى-.

(١) هما الشَّيْخَانِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَطْوَعِ، وَعَلِيٌّ بْنُ حَمْدِ الصَّالِحِي رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى.

(٢) هُوَ الشَّيْخُ عَلِيُّ بْنُ حَمْدِ الصَّالِحِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وفي أثناء ذلك اتصل بساحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز - رحمه الله -، فقرأ عليه في المسجد: من صحيح البخاري، ومن رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية؛ وانتفع به في علم الحديث، والنظر في آراء فقهاء المذاهب والمقارنة بينها، ويعدُّ ساحة الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - هو شيخه الثاني في التحصيل والتأثير به.

ثم عاد إلى عُنيزة عام (١٣٧٤هـ)، وصار يدرُس على شيخه العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ويتابع دراسته انتساباً في كُلية الشريعة، التي أصبحت جزءاً من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، حتى نال الشهادة العالية.

تدريسه:

توسَّم فيه شيخه النجابة وسُرعة التحصيل العلمي فشجَّعه على التدريس وهو ما زال طالباً في حلقاته، فبدأ التدريس عام (١٣٧٠هـ) في الجامع الكبير بعُنيزة. ولما تخرَّج في المعهد العلمي في الرياض عُيِّن مدرِّساً في المعهد العلمي بعُنيزة عام (١٣٧٤هـ).

وفي سنة (١٣٧٦هـ) تُوِّفَّ شيخه العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله تعالى - فتولَّى بعده إمامة الجامع الكبير في عُنيزة، وإمامة العيدين فيها، والتدريس في مكتبة عُنيزة الوطنية التابعة للجامع؛ وهي التي أسَّسها شيخه - رحمه الله - عام (١٣٥٩هـ).

ولما كثر الطلبة، وصارت المكتبة لا تكفيهم؛ بدأ فضيلة الشيخ - رحمه الله - يدرُس في المسجد الجامع نفسه، واجتمع إليه الطلاب وتوافدوا من المملكة وغيرها؛ حتى كانوا يملغون المئات في بعض الدُّروس، وهؤلاء يدرسون دراسة

تَحْصِيلِ جَادٍّ، لَا لِمُجَرَّدِ الاسْتِمَاعِ. وَبَقِيَ عَلَى ذَلِكَ -إِمَامًا وَخَطِيئًا وَمُدْرَسًا- حَتَّى وَفَاتِهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-.

بَقِيَ الشَّيْخُ مُدْرَسًا فِي الْمَعْهَدِ الْعِلْمِيِّ مِنْ عَامِ (١٣٧٤هـ) إِلَى عَامِ (١٣٩٨هـ) عِنْدَمَا انْتَقَلَ إِلَى التَّدْرِيسِ فِي كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ وَأُصُولِ الدِّينِ بِالْقَصِيمِ، التَّابِعَةِ لْجَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعُودٍ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَظَلَّ أَسَاطِذًا فِيهَا حَتَّى وَفَاتِهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-.

وكَانَ يُدْرَسُ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ، فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ وَرَمَضَانَ وَالْإِجَازَاتِ الصَّيْفِيَّةِ، مُنْذُ عَامِ (١٤٠٢هـ) حَتَّى وَفَاتِهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-.

وَلِلشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- أَسْلُوبٌ تَعْلِيمِيٌّ فَرِيدٌ فِي جَوْدَتِهِ وَنَجَاحِهِ، فَهُوَ يُنَاقِشُ طُلَّابَهُ وَيَتَقَبَّلُ أَسْئَلَتَهُمْ، وَيُلْقِي الدُّرُوسَ وَالْمَحَاضِرَاتِ بِهِمَّةٍ عَالِيَةٍ وَنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ وَاثِقَةٍ، مُبْتَهَجًا بِشَرِّهِ لِلْعِلْمِ وَتَقْرِيبِهِ إِلَى النَّاسِ.

أَثَارُهُ الْعِلْمِيَّةُ:

ظَهَرَتْ جُهُودُهُ الْعَظِيمَةُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- خِلَالَ أَكْثَرِ مِنْ خَمْسِينَ عَامًا مِنْ الْعَطَاءِ وَالْبَذْلِ فِي نَشْرِ الْعِلْمِ وَالتَّدْرِيسِ وَالْوَعْظِ وَالْإِزْشَادِ وَالتَّوْجِيهِ وَإِلْقَاءِ الْمَحَاضِرَاتِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

وَلَقَدْ اِهْتَمَّ بِالتَّأْلِيفِ، وَتَحْرِيرِ الْفَتَاوَى وَالْأَجُوبَةِ، الَّتِي تَمَيَّزَتْ بِالتَّاصِيلِ الْعِلْمِيِّ الرَّصِينِ، وَصَدَرَتْ لَهُ الْعَشْرَاتُ مِنَ الْكُتُبِ وَالرَّسَائِلِ وَالْمَحَاضِرَاتِ وَالْفَتَاوَى وَالْحُطُوبِ وَاللِّقَاءَاتِ وَالْمَقَالَاتِ، كَمَا صَدَرَ لَهُ آلافُ السَّاعَاتِ الصَّوْتِيَّةِ الَّتِي سَجَلَتْ مُحَاضَرَاتِهِ وَخُطْبَتَهُ وَلِقَاءَاتِهِ وَبَرَايَجُهُ الْإِذَاعِيَّةَ وَدُرُوسُهُ الْعِلْمِيَّةَ؛ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالشُّرُوحَاتِ الْمُتَمَيِّزَةِ لِلْحَدِيثِ الشَّرِيفِ وَالسِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَالتُّونِ وَالْمَنْظُومَاتِ فِي الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَالنَّحْوِيَّةِ.

وإنفاذاً للقواعد والضوابط والتوجيهات التي قررها فضيلته -رحمه الله تعالى- لنشر مؤلفاته، ورسائله، ودروسه، ومحاضراته، وخطبه، وفتاواه، ولقاءاته؛ تقوم مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية -بعون الله وتوفيقه- بواجب وشرف المسؤولية لإخراج كافة آثاره العلمية والعناية بها.

وبناءً على توجيهاته -رحمه الله تعالى- أنشئ له موقع خاص على شبكة المعلومات الدولية^(١)، من أجل تعميم الفائدة المرجوة -بعون الله تعالى-، وتقديم جميع آثاره العلمية من المؤلفات والتسجيلات الصوتية.

أعماله وجهوده الأخرى:

إلى جانب تلك الجهود المثمرة في مجالات التدريس والتأليف والإمامة والخطابة والإفتاء والدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى- كان لفضيلة الشيخ أعمال كثيرة موفقة منها:

- عضواً في هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية، من عام (١٤٠٧هـ) حتى وفاته.
- عضواً في المجلس العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، في العامين الدراسيين (١٣٩٨-١٤٠٠هـ).
- عضواً في مجلس كلية الشريعة وأصول الدين، بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم، ورئيساً لقسم العقيدة فيها.
- وفي آخر فترة تدريسه بالمعهد العلمي شارك في عضوية لجنة الخطط والمناهج للمعاهد العلمية، وألف عدداً من الكتب المقررة فيها.

- عُضُوا فِي لَجْنَةِ التَّوَعِيَةِ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ، مِنْ عَامِ (١٣٩٢هـ) حَتَّى وَفَاتِهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-، حَيْثُ كَانَ يُلْقِي دُرُوسًا وَمُحَاضِرَاتٍ فِي مَكَّةَ وَالْمَشَاعِرِ، وَيُقْتَنِي فِي الْمَسَائِلِ وَالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ.
- تَرَأَسَ جَمْعِيَّةَ تَحْفِيزِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْحَيَرِيَّةِ فِي عُنِيزَةِ مُنْذُ تَأْسِيسِهَا عَامَ (١٤٠٥هـ) حَتَّى وَفَاتِهِ.
- أَلْقَى مُحَاضِرَاتٍ عَدِيدَةً دَاخِلَ الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ عَلَى فَنَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ مِنَ النَّاسِ، كَمَا أَلْقَى مُحَاضِرَاتٍ عَبْرَ الْهَاتِفِ عَلَى تَجْمُعاتٍ وَمَرَاكِزِ إِسْلَامِيَّةٍ فِي جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْعَالَمِ.
- مِنْ عُلَمَاءِ الْمَمْلَكَةِ الْكِبَارِ الَّذِينَ يُجِيبُونَ عَلَى أَسْئَلَةِ الْمُتَفَسِّرِينَ حَوْلَ أَحْكَامِ الدِّينِ وَأُصُولِهِ؛ عَقِيدَةٍ وَشَرِيعَةٍ، وَذَلِكَ عَبْرَ الْبَرَامِجِ الْإِذَاعِيَّةِ فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ، وَأَشْهَرُهَا بَرْنَامِجُ (نُورٌ عَلَى الدَّرَبِ).
- نَذَرَ نَفْسَهُ لِلْإِجَابَةِ عَلَى أَسْئَلَةِ السَّائِلِينَ؛ مُهَاتِفَةً وَمُكَاتَبَةً وَمُشَافَهَةً.
- رَتَّبَ لِقَاءَاتٍ عِلْمِيَّةً مُجْدُولَةً، أُسْبُوعِيَّةً وَشَهْرِيَّةً وَسَنَوِيَّةً.
- شَارَكَ فِي الْعَدِيدِ مِنَ الْمُؤْتَمَرَاتِ الَّتِي عُقِدَتْ فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ.
- وَلَآئِهِ يَهْتَمُّ بِالسُّلُوكِ التَّرْبَوِيِّ وَالْجَانِبِ الْوَعْظِيِّ اعْتَنَى بِتَوْجِيهِ الطُّلَّابِ وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى سُلُوكِ الْمَنْهَجِ الْجَادِّ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَتَحْصِيلِهِ، وَعَمِلَ عَلَى اسْتِقْطَابِهِمْ وَالصَّبْرَ عَلَى تَعْلِيمِهِمْ وَتَحْمُلِ أَسْئَلَتِهِمُ الْمُتَعَدِّدَةِ، وَالْاهْتِمَامَ بِأُمُورِهِمْ.
- وَلِلشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- أَعْمَالٌ عَدِيدَةٌ فِي مَيَادِينِ الْخَيْرِ وَأَبْوَابِ الْبِرِّ وَمَجَالَاتِ الْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ، وَالسَّعْيِ فِي حَوَائِجِهِمْ وَكِتَابَةِ الْوَثَائِقِ وَالْعُقُودِ بَيْنَهُمْ، وَإِسْدَاءِ النَّصِيحَةِ لَهُمْ بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ.

مَكَانَتُهُ الْعِلْمِيَّةُ:

يُعَدُّ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ الَّذِينَ وَهَبَهُمُ اللَّهُ -بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ- تَأْصِيلًا وَمَلَكَ عَظِيمَةً فِي مَعْرِفَةِ الدَّلِيلِ وَاتِّبَاعِهِ وَاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ وَالْفَوَائِدِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسَبَرِ أَغْوَارِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَعَانِي وَإِعْرَابًا وَبَلَاغَةً.

وَلَمَّا تَحَلَّى بِهِ مِنْ صِفَاتِ الْعُلَمَاءِ الْجَلِيلَةِ، وَأَخْلَقَهُمُ الْحَمِيدَةَ، وَالْجَمْعَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ؛ أَحَبَّهُ النَّاسُ مَحَبَّةً عَظِيمَةً، وَقَدَّرَهُ الْجَمِيعُ كُلَّ التَّقْدِيرِ، وَرَزَقَهُ اللَّهُ الْقَبُولَ لَدَيْهِمْ، وَاطْمَأْنَنُوا لِإِخْتِيَارَاتِهِ الْفَقْهِيَّةِ، وَأَقْبَلُوا عَلَى دُرُوسِهِ وَفَتَاوَاهُ وَآثَارِهِ الْعِلْمِيَّةِ، يَنْهَلُونَ مِنْ مَعِينِ عِلْمِهِ، وَيَسْتَفِيدُونَ مِنْ نُصْحِهِ وَمَوَاعِظِهِ.

وَقَدْ مُنِحَ جَائِزَةُ الْمَلِكِ فَيَصَلَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- الْعَالَمِيَّةَ لِحُدُومَةِ الْإِسْلَامِ عَامَ (١٤١٤هـ)، وَجَاءَ فِي الْحَيْثِيَّاتِ الَّتِي أَبَدَتْهَا لَجْنَةُ الْإِخْتِيَارِ لِمُنْحِهِ الْجَائِزَةَ مَا يَأْتِي:

- أَوَّلًا: تَحْلِيهِ بِأَخْلَاقِ الْعُلَمَاءِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي مِنْ أُبْرَزِهَا: الْوَرَعُ، وَرَحَابَةُ الصَّدْرِ، وَقَوْلُ الْحَقِّ، وَالْعَمَلُ لِمَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَالنُّصْحُ لِحَاصَتِهِمْ وَعَامَّتِهِمْ.
- ثَانِيًا: انْتِفَاعُ الْكَثِيرِينَ بِعِلْمِهِ؛ تَدْرِيسًا وَإِفْتَاءً وَتَأْلِيفًا.
- ثَالِثًا: إِقَاوُهُ الْمُحَاضِرَاتِ الْعَامَّةَ النَّافِعَةَ فِي مُخْتَلَفِ مَنَاطِقِ الْمَمْلَكَةِ.
- رَابِعًا: مُشَارَكَتُهُ الْمُفِيدَةَ فِي مُؤْتَمَرَاتِ إِسْلَامِيَّةٍ كَثِيرَةٍ.
- خَامِسًا: اتِّبَاعُهُ أُسْلُوبًا مُتَمَيِّزًا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَتَقْدِيمُهُ مَثَلًا حَيًّا لِمَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ فَكَّرَا وَسَلُّوكًا.

عَقْبُهُ:

لَهُ خَمْسَةٌ مِنَ الْبَنِينَ، وَثَلَاثٌ مِنَ الْبَنَاتِ، وَبَنُوهُ هُمْ: عَبْدُ اللَّهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَعَبْدُ الْعَزِيزِ، وَعَبْدُ الرَّحِيمِ.

وفاته:

تُوفِّي -رَحِمَهُ اللهُ- فِي مَدِينَةِ جُدَّةَ، قُبَيْلَ مَغْرِبِ يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ، الْخَامِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ، عَامَ (١٤٢١هـ)، وَصُلِّيَ عَلَيْهِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بَعْدَ صَلَاةِ عَصْرِ يَوْمِ الْخَمِيسِ، ثُمَّ شَيَّعَتْهُ تِلْكَ الْأَلْفُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَالْحُشُودِ الْعَظِيمَةِ فِي مَشَاهِدَ مُؤَثَّرَةٍ، وَدُفِنَ فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ.

وَبَعْدَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ مِنَ الْيَوْمِ التَّالِي صُلِّيَ عَلَيْهِ صَلَاةُ الْغَائِبِ فِي جَمِيعِ مُدُنِ الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ.

رَحِمَ اللهُ شَيْخَنَا رَحْمَةً الْأَبْرَارِ، وَأَسْكَنَهُ فَيْسَحَ جَنَّاتِهِ، وَمَنْ عَلَيْهِ بِمَغْفِرَتِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَجَزَاهُ عَمَّا قَدَّمَ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرًا.

القِسْمُ الْعِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعَثِيمِينَ الْخَيْرِيَّةِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ [١] [٢].....

[١] ابْتَدَأَ الْمُؤَلِّفُ رَحْمَةَ اللَّهِ كِتَابَهُ بِالْبِسْمَلَةِ؛ اقْتِدَاءً بِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فَإِنَّهُ مَبْدُوءٌ بِالْبِسْمَلَةِ، وَاتِّبَاعًا لِحَدِيثِ: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِ(بِسْمِ اللَّهِ) فَهُوَ أَتَمُّ»^(١) وَاقْتِدَاءً بِالرَّسُولِ ﷺ، فَإِنَّهُ يَبْدَأُ كُتْبَهُ بِالْبِسْمَلَةِ.

الْجَارُ وَالْمَجْرُورُ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ فِعْلٍ مُؤَخَّرٍ مُنَاسِبٍ لِلْمَقَامِ، تَقْدِيرُهُ: بِسْمِ اللَّهِ أَكْتُبُ أَوْ أَصْنِفُ.

وَقَدَّرْنَاهُ فِعْلًا؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْعَمَلِ الْأَفْعَالُ.

وَقَدَّرْنَاهُ مُؤَخَّرًا لِإِفَائِدَتَيْنِ:

الْأُولَى: التَّبَرُّكُ بِالْبَدَاءَةِ بِاسْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الثَّانِيَةُ: إِفَادَةُ الْحَضَرِ؛ لِأَنَّ تَقْدِيمَ الْمُتَعَلِّقِ يُفِيدُ الْحَضَرَ.

وَقَدَّرْنَاهُ مُنَاسِبًا؛ لِأَنَّهُ أَدَلُّ عَلَى الْمُرَادِ، فَلَوْ قُلْنَا مَثَلًا عِنْدَمَا نُرِيدُ أَنْ نَقْرَأَ كِتَابًا: «بِسْمِ اللَّهِ نَبْتَدِئُ» مَا يُدْرَى بِمَاذَا نَبْتَدِئُ، لَكِنْ: «بِسْمِ اللَّهِ أَقْرَأُ» يَكُونُ أَدَلُّ عَلَى الْمُرَادِ الَّذِي أَتَبَدِئُ بِهِ.

[٢] (اللَّهُ) عَلَّمَ عَلَى الْبَارِي جَلَّ وَعَلَا، وَهُوَ الْإِسْمُ الَّذِي تَتَّبِعُهُ جَمِيعُ الْأَسْمَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٥٩/٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «بذكر الله».



الرَّحْمَنُ ^[١] الرَّحِيمُ ^[٢] اعْلَمُ ^[٣]

يُذِنُ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ [إبراهيم: ١-٢].

لَا نَقُولُ: إِنَّ لَفْظَ الْجَلَالَةِ (الله) صِفَةً، بَلْ نَقُولُ: هِيَ عَطْفُ بَيَانٍ؛ لِئَلَّا يَكُونَ لَفْظُ الْجَلَالَةِ تَابِعًا تَبِيعَةَ النَّعْتِ لِلْمَنْعُوتِ.

[١] الرَّحْمَنُ: اسْمٌ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْمُخْتَصَّةِ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ، لَا يُطْلَقُ عَلَى غَيْرِهِ، وَالرَّحْمَنُ مَعْنَاهُ: الْمُتَّصِفُ بِالرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ.

[٢] الرَّحِيمُ: يُطْلَقُ عَلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَعَلَى غَيْرِهِ، وَمَعْنَاهُ: ذُو الرَّحْمَةِ الْوَاصِلَةِ، فَالرَّحْمَنُ ذُو الرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ، وَالرَّحِيمُ ذُو الرَّحْمَةِ الْوَاصِلَةِ، فَإِذَا جُمِعَا صَارَ الْمُرَادُ بِالرَّحِيمِ الْمَوْصِلَ رَحْمَتِهِ إِلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت: ٢١].

[٣] الْعِلْمُ: هُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ إِدْرَاكًا جَارِمًا.

وَمَرَاتِبُ الْإِدْرَاكِ سِتُّ:

الأولى: الْعِلْمُ، وَهُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ إِدْرَاكًا جَارِمًا.

الثانية: الْجَهْلُ الْبَسِيطُ، وَهُوَ عَدَمُ الْإِدْرَاكِ بِالْكُلِّيَّةِ.

الثالثة: الْجَهْلُ الْمُرَكَّبُ، وَهُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ عَلَى وَجْهِ يُخَالِفُ مَا هُوَ عَلَيْهِ.

الرابعة: الْوَهْمُ، وَهُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ مَعَ اخْتِمَالٍ ضِدِّ رَاجِحٍ.

الخامسة: الشَّكُّ، وَهُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ مَعَ اخْتِمَالٍ مُسَاوٍ.

السادسة: الظَّنُّ، وَهُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ مَعَ اخْتِمَالٍ ضِدِّ مُرْجُوحٍ.

رَحِمَكَ اللَّهُ^[١] أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ^[٢]:

الأولى: العِلْمُ وَهُوَ: مَعْرِفَةُ اللَّهِ^[٣]

وَالْعِلْمُ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: ضَرْوِيٍّ وَنَظَرِيٍّ.

فَالضَّرْوِيُّ مَا يَكُونُ إِدْرَاكُ الْمَعْلُومِ فِيهِ ضَرْوِيًّا، بِحَيْثُ يُضْطَرُّ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ وَلَا اسْتِدْلَالٍ، كَالْعِلْمِ بِأَنَّ النَّارَ حَارَّةٌ، مَثَلًا.

وَالنَّظَرِيُّ مَا يَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ وَاسْتِدْلَالٍ كَالْعِلْمِ بِوُجُوبِ النِّيَّةِ فِي الْوُضُوءِ.

[١] «رَحِمَكَ اللَّهُ»: أَفَاضَ عَلَيْكَ مِنْ رَحْمَتِهِ الَّتِي تَحْصُلُ بِهَا عَلَى مَطْلُوبِكَ، وَتَنْجُو مِنْ مَحْذُورِكَ، فَالْمَعْنَى: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِكَ، وَوَفَّقَكَ وَعَصَمَكَ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنْهَا، هَذَا إِذَا أُفْرِدَتْ الرَّحْمَةُ، أَمَّا إِذَا قُرِنَتْ بِالْمَغْفِرَةِ؛ فَالْمَغْفِرَةُ لِمَا مَضَى مِنَ الذُّنُوبِ، وَالرَّحْمَةُ وَالتَّوْفِيقُ لِلْخَيْرِ وَالسَّلَامَةِ مِنَ الذُّنُوبِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وَصَنِيعُ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَدُلُّ عَلَى عِنَايَتِهِ وَشَفَقَتِهِ بِالْمُخَاطَبِ وَقَصْدِ الْخَيْرِ لَهُ.

[٢] هَذِهِ الْمَسَائِلُ الَّتِي ذَكَرَهَا الْمُؤَلِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - تَشْمَلُ الدِّينَ كُلَّهُ؛ فَهِيَ جَدِيرَةٌ بِالْعِنَايَةِ لِعَظَمِ نَفْعِهَا.

[٣] أَيْ مَعْرِفَةُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ بِالْقَلْبِ مَعْرِفَةً تَسْتَلْزِمُ قَبُولَ مَا شَرَعَهُ، وَالْإِذْعَانَ وَالْإِنْفِیَادَ لَهُ، وَتَحْكِيمَ شَرِيعَتِهِ الَّتِي جَاءَ بِهَا رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَتَعَرُّفُ الْعَبْدِ عَلَى رَبِّهِ بِالنَّظَرِ فِي الْآيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَالنَّظَرِ فِي الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْمَخْلُوقَاتُ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كُلَّمَا نَظَرَ فِي تِلْكَ الْآيَاتِ اِزْدَادَ عِلْمًا بِخَالِقِهِ وَمَعْبُودِهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُتَوَقِّينَ ۝۲۰﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝۲۱﴾

وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ^[١] وَمَعْرِفَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ^[٢].....

[١] أي: مَعْرِفَةُ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ الْمَعْرِفَةُ الَّتِي تَسْتَلْزِمُ قَبُولَ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَامْتِثَالُ أَمْرِهِ فِيمَا أَمَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ، وَتَحْكِيمُ شَرِيعَتِهِ، وَالرِّضَا بِحُكْمِهِ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وَقَالَ عَزَّجَلْ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ الشُّرْكُ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضُ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فِيهِلِكَ»^(١).

[٢] قَوْلُهُ: «مَعْرِفَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ»: الْإِسْلَامُ بِالْمَعْنَى الْعَامُّ هُوَ التَّعَبُّدُ لِلَّهِ بِمَا شَرَعَ مِنْذُ أَنْ أَرْسَلَ اللَّهُ الرَّسُلَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، كَمَا ذَكَرَ عَزَّجَلْ ذَلِكَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشَّرَائِعَ السَّابِقَةَ كُلَّهَا إِسْلَامٌ لِلَّهِ عَزَّجَلْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى رقم (٩٧)، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في الصارم المسلول (ص: ٥٦).

بِالْأَدِلَّةِ^[١].

وَالْإِسْلَامُ بِالْمَعْنَى الْخَاصِّ بَعْدَ بَعْثِ النَّبِيِّ ﷺ يَخْتَصُّ بِمَا بُعِثَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ لِأَنَّ مَا بُعِثَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ نَسَخَ جَمِيعَ الْأَدْيَانِ السَّابِقَةِ، فَصَارَ مِنْ أَتْبَعِهِ مُسْلِمًا وَمَنْ خَالَفَهُ لَيْسَ بِمُسْلِمٍ.

فَاتَّبَاعُ الرُّسُلِ مُسْلِمُونَ فِي زَمَنِ رُسُلِهِمْ، فَالْيَهُودُ مُسْلِمُونَ فِي زَمَنِ مُوسَى ﷺ، وَالنَّصَارَى مُسْلِمُونَ فِي زَمَنِ عِيسَى ﷺ، وَأَمَّا حِينَ بُعِثَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ فَكَفَرُوا بِهِ فَلَيْسُوا بِمُسْلِمِينَ.

وَهَذَا الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ هُوَ الدِّينُ الْمَقْبُولُ عِنْدَ اللَّهِ، النَّافِعُ لِصَاحِبِهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] وَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] وَهَذَا الْإِسْلَامُ هُوَ الْإِسْلَامُ الَّذِي آمَنَ اللَّهُ بِهِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَأُمِّتِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

[١] قَوْلُهُ: «بِالْأَدِلَّةِ» جَمْعٌ: دَلِيلٌ، وَهُوَ مَا يُرْشِدُ إِلَى الْمَطْلُوبِ، وَالْأَدِلَّةُ عَلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ سَمْعِيَّةٌ وَعَقْلِيَّةٌ، فَالسَّمْعِيَّةُ مَا ثَبَتَ بِالْوَحْيِ وَهُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَالْعَقْلِيَّةُ مَا ثَبَتَ بِالنَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ، وَقَدْ أَكْثَرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مِنْ ذِكْرِ هَذَا النَّوعِ فِي كِتَابِهِ، فَكَمْ مِنْ آيَةٍ قَالَ اللَّهُ فِيهَا: وَمِنْ آيَاتِهِ كَذَا وَكَذَا، وَهَكَذَا يَكُونُ سِيَاقُ الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى. وَأَمَّا مَعْرِفَةُ النَّبِيِّ ﷺ:

١ - بِالْأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ: فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] الْآيَةُ. وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

الثَّانِيَةُ: الْعَمَلُ بِهِ ^[١].

الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ ^[٢].

٢- بِالْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ: فَبالنَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ فِيمَا أَتَى بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي أَعْظَمُهَا كِتَابُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ الْمُشْتَمِلُ عَلَى الْأَخْبَارِ الصَّادِقَةِ النَّافِعَةِ، وَالْأَحْكَامِ الْمُصْلِحَةِ الْعَادِلَةِ، وَمَا جَرَى عَلَى يَدَيْهِ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ، وَمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ، الَّتِي لَا تَصْدُرُ إِلَّا عَنْ وَحْيٍ، وَالَّتِي صَدَقَها مَا وَقَعَ مِنْهَا.

[١] قَوْلُهُ: «الْعَمَلُ بِهِ» أَيِ: الْعَمَلُ بِمَا تَقْتَضِيهِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَالْقِيَامِ بِطَاعَتِهِ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْخَاصَّةِ، وَالْعِبَادَاتِ الْمُتَعَدِّيَةِ:

فَالْعِبَادَاتُ الْخَاصَّةُ مِثْلُ الصَّلَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ.

وَالْعِبَادَاتُ الْمُتَعَدِّيَّةُ كَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا أَشَبَّهُ ذَلِكَ.

وَالْعَمَلُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ ثَمَرَةُ الْعِلْمِ؛ فَمَنْ عَمِلَ بِلَا عِلْمٍ فَقَدْ شَابَهُ النَّصَارَى، وَمَنْ عِلْمٌ وَلَمْ يَعْمَلْ فَقَدْ شَابَهُ الْيَهُودَ.

[٢] أَيِ: الدَّعْوَةُ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَرَاتِبِهَا الثَّلَاثِ أَوْ الْأَرْبَعِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْلُهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وَالرَّابِعَةُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وَلَا بُدَّ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ مِنْ عِلْمٍ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ حَتَّى تَكُونَ الدَّعْوَةُ عَنْ عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي

وَسُبَّحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿[يوسف: ١٠٨] وَالْبَصِيرَةُ تَكُونُ فِيمَا يَدْعُو إِلَيْهِ بِأَنْ
يَكُونَ الدَّاعِيَةُ عَالِمًا بِالْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، وَفِي كَيْفِيَّةِ الدَّعْوَةِ، وَفِي حَالِ الْمَدْعُوِّ.

وَمَجَالَاتُ الدَّعْوَةِ كَثِيرَةٌ:

مِنْهَا الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالْحُطَابَةِ، وَإِلْقَاءِ الْمَحَاضِرَاتِ.

وَمِنْهَا الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ بِالْمَقَالَاتِ، وَمِنْهَا الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ بِحَلَقَاتِ الْعِلْمِ.

وَمِنْهَا الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ بِالتَّأْلِيفِ وَنَشْرِ الدِّينِ عَنْ طَرِيقِ التَّأْلِيفِ.

وَمِنْهَا الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ فِي الْمَجَالِسِ الْخَاصَّةِ.

فَإِذَا جَلَسَ الْإِنْسَانُ فِي مَجْلِسٍ فِي دَعْوَةٍ مَثَلًا فَهَذَا مَجَالٌ لِلدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ،
وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَى وَجْهِ لَا مَلَكٌ فِيهِ وَلَا إِثْقَالٌ، وَيُحْصَلُ هَذَا بِأَنْ يَعْزِضَ الدَّاعِيَةُ
مَسْأَلَةَ عِلْمِيَّةٍ عَلَى الْجَالِسِينَ، ثُمَّ تَبْتَدِئُ الْمُنَاقَشَةَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُنَاقَشَةَ وَالسُّؤَالَ وَالْجَوَابَ
لَهُ دَوْرٌ كَبِيرٌ فِي فَهْمٍ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَتَفْهِيمِهِ، وَقَدْ يَكُونُ أَكْثَرُ فَعَالِيَةٍ مِنْ إِلْقَاءِ
خُطْبَةٍ أَوْ مُحَاضَرَةٍ إِلْقَاءِ مُرْسَلًا، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ.

وَالدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ هِيَ وَظِيفَةُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَطَرِيقَةُ
مَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، فَإِذَا عَرَفَ الْإِنْسَانُ مَعْبُودَهُ، وَنَبِيَّهَ، وَدِينَهُ وَمَنْ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالتَّوْفِيقِ
لِلذَلِكَ فَإِنَّ عَلَيْهِ السَّعْيَ فِي إِنْقَادِ إِخْوَانِهِ بِدَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلَيْسَ بِالْخَيْرِ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ خَيْبَرٍ: «انْفُذْ عَلَى رَسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ
بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ،

الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى فِيهِ ^[١].....

فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ مُخْرِ النَّعَمِ ^(١) مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ.
وَيَقُولُ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورٍ مِنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامٍ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا» ^(٢). وَقَالَ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ» ^(٣).

[١] الصَّبْرُ: حَبْسُ النَّفْسِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَحَبْسُهَا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَحَبْسُهَا عَنْ التَّسَخُّطِ مِنْ أَقْدَارِ اللَّهِ، فَيَحْبِسُ النَّفْسَ عَنِ التَّسَخُّطِ وَالتَّضَجُّرِ وَالْمَلَلِ، وَيَكُونُ دَائِمًا نَشِيطًا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَإِنْ أُوْذِيَ؛ لِأَنَّ أَذِيَّةَ الدَّاعِينَ إِلَى الْخَيْرِ مِنْ طَبِيعَةِ الْبَشَرِ إِلَّا مَنْ هَدَى اللَّهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرْنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

وَكُلَّمَا قَوِيَتْ الْأَذْيَةُ قَرَّبَ النَّصْرُ، وَلَيْسَ النَّصْرُ مُحْتَضًا بِأَنْ يُنْصَرَ الْإِنْسَانُ فِي حَيَاتِهِ، وَيَرَى أَثَرَ دَعْوَتِهِ قَدْ تَحَقَّقَ، بَلِ النَّصْرُ يَكُونُ وَلَوْ بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ قَبُولًا لَهَا دَعَا إِلَيْهِ، وَأَخْذًا بِهِ، وَتَمَسُّكًا بِهِ، فَإِنَّ هَذَا يُعْتَبَرُ نَصْرًا لِهَذَا الدَّاعِيَةِ وَإِنْ كَانَ مَيِّتًا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، رقم (٢٩٤٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب، رقم (٢٤٠٦)، من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة، رقم (٢٦٧٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، رقم (١٨٩٣)، من حديث أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



فَعَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يَكُونَ صَابِرًا عَلَى دَعْوَتِهِ، مُسْتَمِرًّا فِيهَا، صَابِرًا عَلَى مَا يَدْعُو
إِلَيْهِ مِنْ دِينِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، صَابِرًا عَلَى مَا يَغْتَرِضُ دَعْوَتَهُ، صَابِرًا عَلَى مَا يَغْتَرِضُهُ هُوَ مِنْ
الْأَذَى.

وَهَا هُمُ الرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَوْذُوا بِالْقَوْلِ وَبِالْفِعْلِ، قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ [الذاريات: ٥٢]، وَقَالَ
عَزَّجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]، وَلَكِنْ عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ
يُقَابِلَ ذَلِكَ بِالصَّبْرِ.

وَأَنْظُرْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾
[الإنسان: ٢٣]، كَانَ مِنَ الْمُتَنْظَرِ أَنْ يُقَالَ: فَاشْكُرْ نِعْمَةَ رَبِّكَ، وَلَكِنَّهُ عَزَّجَلَّ قَالَ: ﴿فَاصْبِرْ
لِعُكْرِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٤]، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ قَامَ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَنَالَهُ
مَا يَنَالُهُ يَمَّا يَخْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ.

وَأَنْظُرْ إِلَى حَالِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَذَمُوهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ
وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»^(١).

فَعَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يَكُونَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، وَالصَّبْرُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

١- صَبْرٌ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ.

٢- صَبْرٌ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٧٧)، ومسلم: كتاب
الجهاد والسير، باب غزوة أحد، رقم (١٧٩٢)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿١﴾

٣- صَبْرٌ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الَّتِي يُجْرِيهَا؛ إِمَّا مِمَّا لَا كَسْبَ لِلْعِبَادِ فِيهِ، وَإِمَّا مِمَّا يُجْرِيهِ اللَّهُ عَلَى أَيْدِي بَعْضِ الْعِبَادِ مِنَ الْإِيذَاءِ وَالْإِعْتِدَاءِ.

[١] قَوْلُهُ: «وَالدَّلِيلُ» أَيُّ: عَلَى هَذِهِ الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ أَفَسَمَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ بِالْعَصْرِ الَّذِي هُوَ الدَّهْرُ، وَهُوَ مَحَلُّ الْحَوَادِثِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، فَأَفَسَمَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ كُلَّ الْإِنْسَانَ فِي خُسْرٍ إِلَّا مَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْأَرْبَعِ: الْإِيمَانَ، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ، وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ ^(١) -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: جِهَادُ النَّفْسِ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ:

إِحْدَاهَا: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى تَعَلُّمِ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ الَّذِي لَا فَلَاحَ لَهَا وَلَا سَعَادَةً فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا إِلَّا بِهِ.

الثَّانِيَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الْعَمَلِ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ.

الثَّالِثَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَتَعْلِيمِهِ مَنْ لَا يَعْلَمُهُ.

الرَّابِعَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الصَّبْرِ عَلَى مَشَاقِّ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَأَذَى الْخَلْقِ، وَيَتَحَمَّلَ ذَلِكَ كُلَّهُ لِلَّهِ، فَإِذَا اسْتَكْمَلَ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ الْأَرْبَعَ صَارَ مِنَ الرَّبَّانِيِّينَ.

فَاللَّهُ عَزَّجَلَّ أَفَسَمَ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ بِالْعَصْرِ عَلَى أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ فَهُوَ فِي خَبِيَّةٍ وَخُسْرٍ مَهْمَا كَثُرَ مَالُهُ وَوَلَدُهُ وَعَظُمَ قَدْرُهُ وَشَرَفُهُ، إِلَّا مَنْ جَمَعَ هَذِهِ الْأَوْصَافَ الْأَرْبَعَةَ:

قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ^[١] -: «لَوْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ» ^[٢]

أَحَدُهَا: الْإِيمَانُ، وَيَشْمَلُ كُلَّ مَا يُقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ اعْتِقَادٍ صَحِيحٍ وَعِلْمٍ نَافِعٍ.
الثَّانِي: الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَهُوَ كُلُّ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ يُقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِأَنْ يَكُونَ فَاعِلُهُ اللَّهُ مُخْلِصًا، وَلِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُتَّبِعًا.

الثَّالِثُ: التَّوَاصِي بِالْحَقِّ، وَهُوَ التَّوَاصِي عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ وَالتَّرْغِيبُ فِيهِ.

الرَّابِعُ: التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ، بِأَنْ يُوصِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالصَّبْرِ عَلَى فِعْلٍ أَوْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَرْكِ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَتَحْمِلِ أَقْدَارِ اللَّهِ.

وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ يَتَضَمَّنَانِ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ اللَّذَيْنِ بِهِمَا قَوَامُ الْأَمَّةِ وَصَلَاحُهَا وَنَصْرُهَا وَحُصُولُ الشَّرَفِ وَالْفَضِيلَةِ لَهَا: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

[١] الشَّافِعِيُّ: هُوَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ شَافِعٍ الْهَاشِمِيُّ الْقُرَشِيُّ، وُلِدَ فِي غَزَّةَ سَنَةَ ١٥٠ هـ، وَتُوُفِّيَ بِمِصْرَ سَنَةَ ٢٠٤ هـ، وَهُوَ أَحَدُ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ، عَلَى الْجَمِيعِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

[٢] مُرَادُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ هَذِهِ السُّورَةُ كَافِيَةٌ لِلْخَلْقِ فِي الْحَثِّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِدِينِ اللَّهِ: بِالْإِيمَانِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَالصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ، وَلَيْسَ مُرَادُهُ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ كَافِيَةٌ لِلْخَلْقِ فِي جَمِيعِ الشَّرِيعَةِ.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ^[١]: «بَابُ: الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ». وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [حمد: ١٩] فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ^[٢].

وَقَوْلُهُ: «لَوْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةُ لَكَفَتْهُمْ»؛ لِأَنَّ الْعَاقِلَ الْبَصِيرَ إِذَا سَمِعَ هَذِهِ السُّورَةَ أَوْ قَرَأَهَا فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْعَى إِلَى تَخْلِيصِ نَفْسِهِ مِنَ الْخُسْرَانِ، وَذَلِكَ بِاتِّصَافِهِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْأَرْبَعِ: الْإِيمَانِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ، وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ.

[١] الْبُخَارِيُّ هُوَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْبُخَارِيُّ، وُلِدَ بِبُخَارَى فِي شَوَّالِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ وَمِئَةٍ، وَنَشَأَ يَتِيمًا فِي حَجَرٍ وَالِدَتِهِ، وَتَوَفَّى رَحِمَهُ اللَّهُ فِي خَرْتَنَكَ بَلَدَةٍ عَلَى فَرَسَخَيْنِ مِنْ سَمَرْقَنْدَ لَيْلَةَ عِيدِ الْفِطْرِ سَنَةِ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَمِئَتَيْنِ.

[٢] اسْتَدَلَّ الْبُخَارِيُّ^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى وُجُوبِ الْبَدَاءَةِ بِالْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَهَذَا دَلِيلٌ أَثَرِيٌّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَعْلمُ أَوَّلًا ثُمَّ يَعْملُ ثَانِيًا. وَهُنَاكَ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ نَظَرِيٌّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقَوْلَ أَوْ الْعَمَلَ لَا يَكُونُ صَحِيحًا مَقْبُولًا حَتَّى يَكُونَ عَلَى وَفْقِ الشَّرِيعَةِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَعْلمَ الْإِنْسَانُ أَنْ عَمَلَهُ عَلَى وَفْقِ الشَّرِيعَةِ إِلَّا بِالْعِلْمِ.

وَلَكِنْ هُنَاكَ أَشْيَاءُ يَعْلمُهَا الْإِنْسَانُ بِفِطْرَتِهِ كَالْعِلْمِ بِأَنَّ اللَّهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَإِنَّ هَذَا قَدْ فُطِرَ عَلَيْهِ الْعَبْدُ؛ وَهَذَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى عَنَاءٍ كَبِيرٍ فِي التَّعَلُّمِ، أَمَّا الْمَسَائِلُ الْجَزْئِيَّةُ الْمُتَشْرِعَةُ فَهِيَ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى تَعَلُّمٍ وَتَكْرِيسٍ جُهِودٍ.

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ تَعْلُمُ ثَلَاثَ هَذِهِ الْمَسَائِلِ
وَالْعَمَلُ بِهِنَّ:

الأولى: أَنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا^[١]

[١] وَدَلِيلُ ذَلِكَ - أَغْنِي: أَنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا - سَمْعِي وَعَقْلِي:

أَمَّا السَّمْعِي فَكَثِيرٌ، وَمِنْهُ:

قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ
تَمُرُّونَ﴾ [الأنعام: ٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] الْآيَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]،
وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ عَآيِنِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ
خَلَقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ
وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

أَمَّا الدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا فَقَدْ جَاءَتْ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِفُونَ﴾ [الطور: ٣٥] فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَمْ يَخْلُقْ نَفْسَهُ؛ لِأَنَّهُ
قَبْلَ وُجُودِهِ عَدَمٌ، وَالْعَدَمُ لَيْسَ بِشَيْءٍ، وَمَا لَيْسَ بِشَيْءٍ لَا يُوجَدُ شَيْئًا، وَلَمْ يَخْلُقْهُ أَبُوهُ
وَلَا أُمُّهُ وَلَا أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَأْتِي صُدْفَةً بِدُونِ مُوجِدٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ حَادِثٍ لَا بُدَّ
لَهُ مِنْ مُخْدِتٍ.

وَرَزَقْنَا^[١].....

وَلَا نَ وَجُودَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى هَذَا النِّظَامِ الْبَدِيعِ وَالتَّنَاسُقِ الْمُتَالِفِ يَمْنَعُ مَنَعًا بَاتًا أَنْ يَكُونَ صُدْفَةً؛ إِذِ الْمَوْجُودُ صُدْفَةٌ لَيْسَ عَلَى نِظَامٍ فِي أَصْلِ وَجُودِهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ مُنْتَظِمًا حَالَ بَقَائِهِ وَتَطَوُّرِهِ؟ فَتَعَيَّنَ بِهَذَا أَنْ يَكُونَ الْخَالِقُ هُوَ اللَّهُ وَخَدُّهُ، فَلَا خَالِقَ وَلَا أَمَرَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وَلَمْ يُعْلَمْ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ أَنْكَرَ رُبُوبِيَّةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَّا عَلَى وَجْهِ الْمَكَابَرَةِ، كَمَا حَصَلَ مِنْ فِرْعَوْنَ، وَعِنْدَمَا سَمِعَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ سُورَةَ الطُّورِ فَبَلَغَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴿[الطور: ٣٥-٣٧] وَكَانَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكًا فَقَالَ: «كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ، وَذَلِكَ أَوَّلَ مَا وَقَرَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي»^(١).

[١] أَدِلَّةُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ كَثِيرَةٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ وَالْعَقْلِ:

أَمَّا الْكِتَابُ: فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [سبا: ٢٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ

الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب تفسير سورة الطور، رقم (٤٨٥٤).

وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا^[١].....

وَأَمَّا السُّنَّةُ: فَمِنْهَا قَوْلُهُ ﷺ فِي الْجَنِينِ يُبْعَثُ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكُتُبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٍّ أَمْ سَعِيدٍ^(١).

وَأَمَّا الدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ رَزَقَنَا؛ فَلَأَنَّكَ لَا نَعِيشُ إِلَّا عَلَى طَعَامٍ وَشَرَابٍ، وَالطَّعَامُ وَالشَّرَابُ خَلَقَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ^(١٣) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ^(١٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ^(١٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ^(١٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ^(١٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ^(١٨) ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ^(١٩) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿ [الواقعة: ٦٣-٧٠] فِيهِ هَذِهِ الْآيَاتِ بَيَانٌ أَنَّ رِزْقَنَا طَعَامًا وَشَرَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

[١] هَذَا هُوَ الْوَاقِعُ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةُ السَّمْعِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ:

أَمَّا السَّمْعِيَّةُ فَمِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَا تُرْجَعُونَ﴾ ^(١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ ^(٣٦) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ^(٣٧) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ^(٣٨) لَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ^(٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخْجِيَ الْوَلَدَ ﴿ [القيامة: ٣٦-٤٠].

وَأَمَّا الْعَقْلُ: فَلِأَنَّ وُجُودَ هَذِهِ الْبَشَرِيَّةِ لِتَحْيَا، ثُمَّ تَتَمَتَّعُ كَمَا تَتَمَتَّعُ الْإِنْعَامُ، ثُمَّ تَمُوتُ إِلَى غَيْرِ بَعْثٍ وَلَا حِسَابٍ -أَمْرٌ لَا يَلِيْقُ بِحِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، بَلْ هُوَ عَبَثٌ مُحْضٌ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٣)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَلْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا رَسُولًا^[١].....

وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ هَذِهِ الْخَلِيقَةَ، وَيُرْسِلَ إِلَيْهَا الرُّسُلَ، وَيُبَيِّحُ لَنَا دِمَاءَ
الْمُعَارِضِينَ الْمَخَالِفِينَ لِلرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ثُمَّ تَكُونُ النَّتِيجَةُ لَا شَيْءَ،
هَذَا مُسْتَحِيلٌ عَلَى حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

[١] أَيْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَرْسَلَ إِلَيْنَا - مَعَشَرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ - رَسُولًا يَتْلُو
عَلَيْنَا آيَاتِ رَبِّنَا، وَيُزَكِّيُنَا، وَيُعَلِّمُنَا الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، كَمَا أَرْسَلَ إِلَى مَنْ قَبْلَنَا، قَالَ اللَّهُ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَنْفَعُ أُمَّةً إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وَلَا بُدَّ أَنْ يُرْسِلَ اللَّهُ الرُّسُلَ إِلَى الْخَلْقِ لِنُقُومَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ، وَلِيَعْبُدُوا اللَّهَ
بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ
مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى
وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زُورًا ۖ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ
مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۖ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ
وَمُنْذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۚ﴾
[النساء: ١٦٣-١٦٥].

وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهُ بِمَا يَرْضَاهُ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛
لَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ بَيَّنُّوا لَنَا مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، وَمَا يُقَرِّبُنَا إِلَيْهِ عَزَّوَجَلَّ، فَبِذَلِكَ كَانَ مِنْ
حِكْمَةِ اللَّهِ أَنْ أَرْسَلَ إِلَى الْخَلْقِ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا
أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ
أَخْذًا وَّيْلًا ۚ﴾ [الزمل: ١٥-١٦].

فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ^[١] وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ^[١]

[١] هَذَا حَقٌّ مُسْتَفَادٌ مِنْ:

قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾ ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٢-١٣٣]، وَمِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

وَمِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

وَمِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى» فَقِيلَ: وَمَنْ يَأْبَى يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي دَخَلَ النَّارَ»^(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

[١] هَذَا أَيْضًا حَقٌّ مُسْتَفَادٌ مِنْ:

قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٠)، من حديث أبي هريرة رَوَاهُ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥-١٦].

الثَّانِيَةُ^(١): أَنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لَا مَلَكٌ مُّقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُّرْسَلٌ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].
وَمِنْ قَوْلِهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ السَّابِقِ: «وَمَنْ عَصَانِي دَخَلَ النَّارَ»^(١).
[٢] أَيِ الْمَسْأَلَةِ الثَّانِيَةِ مِمَّا يَجِبُ عَلَيْنَا عِلْمُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَرْضَىٰ أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ فِي عِبَادَتِهِ أَحَدٌ، بَلْ هُوَ وَحْدَهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ.
وَدَلِيلُ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] فَنَهَى اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَدْعُوا الْإِنْسَانُ مَعَ اللَّهِ أَحَدًا، وَاللَّهُ لَا يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ لَا يَرْضَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

فَالْكُفْرُ وَالشُّرْكُ لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بَلْ إِنَّمَا أَرْسَلَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ لِمُحَارَبَةِ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ وَالْقَضَاءِ عَلَيْهِمَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونُوا فِتْنَةً وَيَكُونُوا لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَكَنًا﴾ [الأنفال: ٣٩].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثالثة^(١): أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللَّهَ لَا يَحُوزُ لَهُ مُوَالَاةٌ مِنْ حَادِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وَإِذَا كَانَ اللَّهُ لَا يَرْضَى بِالْكَفْرِ وَالشِّرْكِ فَإِنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ لَا يَرْضَى بِهِمَا؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ رِضَاهُ وَغَضَبُهُ تَبِعُ رِضَا اللَّهِ وَغَضَبِهِ، فَيَغْضَبُ لِمَا يُغْضِبُ اللَّهَ وَيَرْضَى بِمَا يَرْضَاهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ اللَّهُ لَا يَرْضَى الْكَفْرَ وَلَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ لَا يَلِيقُ بِمُؤْمِنٍ أَنْ يَرْضَى بِهِمَا.

وَالشِّرْكَ أَمْرُهُ حَاطِرٌ، قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»^(١).

[١] أَيِ الْمَسْأَلَةِ الثَّالِثَةِ مِمَّا يَجِبُ عَلَيْنَا عِلْمُهُ: الْوَلَاءُ وَالْبَرَاءُ.

وَالْوَلَاءُ وَالْبَرَاءُ أَصْلٌ عَظِيمٌ جَاءَتْ فِيهِ النُّصُوصُ الْكَثِيرَةُ: قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: ١١٨].

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، رقم (٩٣)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٣٢) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٣-٢٤].

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُرْهِدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [المتحنة: ٤] الآية.

وَلَاَنَّ مَوَالَاةَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَمُدَارَاتِهِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْعَقْلِ أَنْ يُحِبَّ الْإِنْسَانُ شَيْئًا هُوَ عَدُوٌّ لِمَحْبُوبِهِ. وَمَوَالَاةُ الْكُفَّارِ تَكُونُ بِمُنَاصَرَّتِهِمْ وَمُعَاوَنَتِهِمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، وَمَوَادَّتُهُمْ تَكُونُ بِفِعْلِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَكُونُ بَهَا مَوَدَّتُهُمْ، فَتَجِدُهُ يَوَادُّهُمْ -أَيَّ يَطْلُبُ وَدُّهُمْ- بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَهَذَا لَا شَكَّ يُتَابِي الْإِيمَانَ كُلَّهُ أَوْ كَمَالَهُ.

فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ مُعَادَاةُ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ إِلَيْهِ، وَبُغْضُهُ، وَالْبُعْدُ عَنْهُ، وَلَكِنْ هَذَا لَا يَمْنَعُ نَصِيحَتَهُ وَدَعْوَتَهُ لِلْحَقِّ.

اعْلَمْ^[١] أَرْشَدَكَ اللهُ^[٢] لِبَطَاعَتِهِ^[٣]: أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ^[٤] مِلَّةُ^[٥] إِبْرَاهِيمَ^[٦]: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ^[٧] مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ^[٨].....

[١] تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْعِلْمِ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى إِعَادَتِهِ هُنَا.

[٢] الرُّشْدُ: الْإِسْتِقَامَةُ عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ.

[٣] الطَّاعَةُ: مُوَافَقَةُ الْمُرَادِ فِعْلًا لِلْمَأْمُورِ وَتَرْكًَا لِلْمَحْظُورِ.

[٤] الْحَنِيفِيَّةُ: هِيَ الْمِلَّةُ الْمَائِلَةُ عَنِ الشُّرْكِ، الْمَبْنِيَّةُ عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

[٥] أَيُّ: طَرِيقُهُ الدِّينِيُّ الَّذِي يَسِيرُ عَلَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

[٦] إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هُوَ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾

[النساء: ١٢٥] وَهُوَ أَبُو الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ تَكَرَّرَ ذِكْرُ مَنْهَجِهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ؛ لِإِلْفِتْدَاءِ بِهِ.

[٧] قَوْلُهُ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ» هَذِهِ خَبَرٌ (أَنَّ) فِي قَوْلٍ: (أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ) وَالْعِبَادَةُ بِمَفْهُومِهَا

الْعَامِّ هِيَ «التَّذَلُّلُ لِلَّهِ حُبَّةً وَتَعْظِيمًا بِفِعْلِ أَوْامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ شَرَائِعُهُ».

أَمَّا الْمَفْهُومُ الْخَاصُّ لِلْعِبَادَةِ -يَعْنِي تَفْصِيلَهَا- فَقَدْ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ^(١)

رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْعِبَادَةُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ، وَالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ كَالْخَوْفِ، وَالْحَشْيَةِ، وَالتَّوَكُّلِ، وَالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ».

[٨] الْإِخْلَاصُ هُوَ التَّنْفِيذُ، وَالْمُرَادُ بِهِ أَنْ يَقْصِدَ الْمَرْءُ بِعِبَادَتِهِ وَجْهَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ،

وَالْوُضُوءَ إِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ، بِحَيْثُ لَا يَعْبُدُ مَعَهُ غَيْرُهُ لَا مَلَكًا مُقَرَّبًا وَلَا نَبِيًّا مُرْسَلًا.

وَبِذَلِكَ^[١] أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ
الْإِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وَمَعْنَى يَعْبُدُونَ يُوحِّدُونَ^[٢]،

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ
فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ
إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢].

[١] أَي: بِالْحَنِيفِيَّةِ - وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ - أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ
وَخَلَقَهُمْ لَهَا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وَيَبِّنَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي كِتَابِهِ أَنَّ الْخَلْقَ إِنَّمَا خُلِقُوا لِهَذَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ
الْإِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

[٢] يَعْنِي: التَّوْحِيدُ مِنْ مَعْنَى الْعِبَادَةِ، وَإِلَّا فَقَدْ سَبَقَ لَكَ مَعْنَى الْعِبَادَةِ، وَعَلَى
أَيِّ شَيْءٍ تُطْلَقُ، وَأَنَّهَا أَعَمُّ مِنْ مُجَرَّدِ التَّوْحِيدِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعِبَادَةَ نَوْعَانِ:

عِبَادَةُ كَوْنِيَّةٌ، وَهِيَ الْخُضُوعُ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى الْكَوْنِيِّ، وَهَذِهِ شَامِلَةٌ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ،
لَا يَخْرُجُ عَنْهَا أَحَدٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ
عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] فَهِيَ شَامِلَةٌ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ.

وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ^[١].....

وَالثَّانِي: عِبَادَةُ شَرْعِيَّةٌ، وَهِيَ الْخُضُوعُ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى الشَّرْعِيِّ، وَهَذِهِ خَاصَّةٌ بِمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ تَعَالَى، وَاتَّبَعَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

فَالنُّوعُ الْأَوَّلُ لَا يُحْمَدُ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ؛ لِأَنَّهُ بَغَيْرِ فِعْلِهِ، لَكِنْ قَدْ يُحْمَدُ عَلَى مَا يَحْصُلُ مِنْهُ مِنْ شُكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ، وَصَبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ، بِخِلَافِ النَّوعِ الثَّانِي فَإِنَّهُ يُحْمَدُ عَلَيْهِ.

[١] التَّوْحِيدُ لُغَةً مُصَدَّرٌ وَحَدَّ يُوحِدُ، أَيُّ: جَعَلَ الشَّيْءَ وَاحِدًا، وَهَذَا لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِنَفْيِ وَإِثْبَاتٍ، نَفْيِ الْحُكْمِ عَمَّا سِوَى الْمُوحَّدِ وَإِثْبَاتِهِ لَهُ، فَمَثَلًا نَقُولُ: إِنَّهُ لَا يَتِمُّ لِلْإِنْسَانِ التَّوْحِيدُ حَتَّى يَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ فَيَنْفِي الْأُلُوهِيَّةَ عَمَّا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى، وَيُثَبِّتَهَا لِلَّهِ وَحْدَهُ.

وَفِي الْإِضْطِلَاحِ عَرَفَهُ الْمُؤَلِّفُ بِقَوْلِهِ: «التَّوْحِيدُ هُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ» أَيُّ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، لَا تُشْرِكَ بِهِ نَبِيًّا مُرْسَلًا، وَلَا مَلَكًا مُقَرَّبًا، وَلَا رَئِيسًا، وَلَا مَلِكًا، وَلَا أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ، بَلْ تُفَرِّدُهُ وَحْدَهُ بِالْعِبَادَةِ مَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا، وَرَغْبَةً وَرَهْبَةً، وَمُرَادُ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ التَّوْحِيدُ الَّذِي بُعِثَتِ الرُّسُلُ لِتَحْقِيقِهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي حَصَلَ بِهِ الْإِخْلَالُ مِنْ أَقْوَامِهِمْ.

وَهُنَاكَ تَعْرِيفٌ أَعَمُّ لِلتَّوْحِيدِ وَهُوَ: «إِفْرَادُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا يَخْتَصُّ بِهِ».

وَأَنْوَاعُ التَّوْحِيدِ ثَلَاثَةٌ:

الأوَّلُ: تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهُوَ «إِفْرَادُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْخَلْقِ، وَالْمُلْكِ، وَالتَّدْبِيرِ» قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ

اللَّهُ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿[فاطر: ٣]﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي يَدِيرُ الْمُلْكَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

الثاني: تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ، وَهُوَ «إِفْرَادُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعِبَادَةِ بِأَنْ لَا يَتَّخِذَ الْإِنْسَانُ مَعَ اللَّهِ أَحَدًا يَعْبُدُهُ وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ، كَمَا يَعْبُدُ اللَّهُ تَعَالَى وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ».

الثالث: تَوْحِيدُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَهُوَ «إِفْرَادُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا سَمِيَ بِهِ نَفْسُهُ، وَوَصَفَ بِهِ نَفْسُهُ فِي كِتَابِهِ، أَوْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، وَذَلِكَ بِإِبْثَاتِ مَا أَثْبَتَهُ، وَنَفْيِ مَا نَفَاهُ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ، وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ، وَلَا تَمَثِيلٍ».

وَمُرَادُ الْمُؤَلَّفِ هُنَا تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ، وَهُوَ الَّذِي ضَلَّ فِيهِ الْمُشْرِكُونَ، الَّذِينَ قَاتَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ، وَاسْتَبَاحَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ، وَسَبَى نِسَاءَهُمْ وَذُرِّيَّتَهُمْ، وَأَكْثَرَ مَا يُعَالِجُ الرُّسُلُ أَقْوَامَهُمْ عَلَى هَذَا النَّوعِ مِنَ التَّوْحِيدِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النحل: ٣٦]. فَالْعِبَادَةُ لَا تَصِحُّ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَمَنْ أَخْلَلَ بِهَذَا التَّوْحِيدِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ، وَإِنْ أَقَرَّ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، فَلَوْ فَرَضَ أَنْ رَجُلًا يَقَرُّ إِقْرَارًا كَامِلًا بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَلَكِنَّهُ يَذْهَبُ إِلَى الْقَبْرِ فَيَعْبُدُ صَاحِبَهُ، أَوْ يَنْدُرُ لَهُ قُرْبَانًا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ مُشْرِكٌ كَافِرٌ خَالِدٌ فِي النَّارِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وإِنَّمَا كَانَ التَّوْحِيدُ أَعْظَمَ مَا أَمَرَ اللَّهُ؛ لِأَنَّهُ الْأَصْلُ الَّذِي يَنْبَنِي عَلَيْهِ الدِّينُ كُلُّهُ، وَلِهَذَا بَدَأَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَأَمَرَ مَنْ أَرْسَلَهُ لِلدَّعْوَةِ أَنْ يَبْدَأَ بِهِ.

وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ. وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾^(١) [النساء: ٣٦].

[١] أَعْظَمُ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ الشِّرْكُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ أَعْظَمَ الْحُقُوقِ هُوَ حَقُّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِذَا فَرَطَ فِيهِ الْإِنْسَانُ فَقَدْ فَرَطَ فِي أَعْظَمِ الْحُقُوقِ، وَهُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعْظَمُ الذَّنْبِ أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»^(١).

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»^(٢).

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ»^(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، رقم (٤٤٧٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، رقم (٨٦)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، رقم (٩٣).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، رقم (٤٤٩٧)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الْأُصُولُ^[١] الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ.....

وَاسْتَدَلَّ الْمُؤَلِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعِبَادَةِ وَنَهْيِهِ عَنِ الشُّرْكِ بِقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦] فَأَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِعِبَادَتِهِ، وَنَهَى عَنِ الشُّرْكِ بِهِ، وَهَذَا يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ الْعِبَادَةِ لَهُ وَحْدَهُ، فَمَنْ لَمْ يَعْبُدِ اللَّهَ فَهُوَ كَافِرٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَمَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَعَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ فَهُوَ كَافِرٌ مُشْرِكٌ، وَمَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ فَهُوَ مُسْلِمٌ مُخْلِصٌ.

وَالشُّرْكَ نَوْعَانِ: شُرْكَ أَكْبَرُ، وَشُرْكَ أَصْغَرُ.

فَالنَّوْعُ الْأَوَّلُ: الشُّرْكَ الْأَكْبَرُ، وَهُوَ كُلُّ شُرْكَ أَطْلَقَهُ الشَّارِعُ، وَكَانَ مُتَضَمِّنًا لِحُجُوجِ الْإِنْسَانِ عَنْ دِينِهِ.

النَّوْعُ الثَّانِي: الشُّرْكَ الْأَصْغَرُ، وَهُوَ كُلُّ عَمَلٍ - قَوْلِيٍّ أَوْ فِعْلِيٍّ - أَطْلَقَ عَلَيْهِ الشَّرْعُ وَصَفَ الشُّرْكَ، وَلَكِنَّهُ لَا يُخْرِجُ عَنِ الْمِلَّةِ.

وَعَلَى الْإِنْسَانِ الْحَذَرُ مِنَ الشُّرْكِ أَكْبَرِهِ وَأَصْغَرِهِ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨].

[١] الْأُصُولُ جَمْعُ أَصْلٍ، وَهُوَ مَا يُبْنَى عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَمِنْ ذَلِكَ أَصْلُ الْجِدَارِ وَهُوَ أَسَاسُهُ، وَأَصْلُ الشَّجَرَةِ الَّذِي يَنْفَرَعُ مِنْهُ الْأَغْصَانُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

وَهَذِهِ الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ يُشِيرُ بِهَا الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى الْأُصُولِ الَّتِي يُسْأَلُ عَنْهَا الْإِنْسَانُ فِي قَبْرِهِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيِّكَ؟

مَعْرِفَتُهَا^[١]؟فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ^[٢]،

[١] أَوْرَدَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ بِصِيغَةِ السُّؤَالِ؛ وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَّبِعَهُ الْإِنْسَانُ لَهَا؛ لِأَنَّهَا مَسْأَلَةٌ عَظِيمَةٌ وَأُصُولٌ كَبِيرَةٌ؛ وَإِنَّمَا قَالَ: إِنَّ هَذِهِ هِيَ الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؛ لِأَنَّهَا هِيَ الْأُصُولُ الَّتِي يُسْأَلُ عَنْهَا الْمَرْءُ فِي قَبْرِهِ إِذَا دُفِنَ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، أَنَاهُ مَلَكَانِ فَأَقْعَدَاهُ، فَسَأَلَاهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ. وَأَمَّا الْمُرْتَابُ أَوْ الْمُنَافِقُ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ! لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ.

[٢] مَعْرِفَةُ اللَّهِ تَكُونُ بِأَسْبَابٍ: مِنْهَا النَّظَرُ وَالتَّفَكُّرُ فِي مَخْلُوقَاتِهِ عَزَّجَلَّ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى مَعْرِفَتِهِ، وَمَعْرِفَةِ عَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَتِمَامِ قُدْرَتِهِ، وَحِكْمَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وَقَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَوَاحِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَى وَفُرْدَى ثُمَّ نَنْفَكُرُوا﴾ [سبأ: ٤٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وَقَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٦]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وَدِينَهُ^[١]

وَمِنْ أَسْبَابِ مَعْرِفَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ النَّظَرُ فِي آيَاتِهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَهِيَ الْوَحْيُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَيَنْظُرُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَا تَقُومُ حَيَاةُ الْخَلْقِ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا بِهَا، فَإِذَا نَظَرَ فِيهَا وَتَأَمَّلَهَا وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، وَوَجَدَ انْتِظَامَهَا وَمُوَافَقَتَهَا لِمَصَالِحِ الْعِبَادِ - عَرَفَ بِذَلِكَ رَبَّهُ عَزَّوَجَلَّ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وَمِنْهَا مَا يُلْقِي اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَتَّى كَانَهُ يَرَى رَبَّهُ رَأْيَ الْعَيْنِ، قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ سَأَلَهُ جِبْرِيلُ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(١).

[١] أَيُّ: مَعْرِفَةُ الْأَصْلِ الثَّانِي وَهُوَ دِينُهُ الَّذِي كُلَّفَ الْعَمَلَ بِهِ، وَمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ وَمَصَالِحِ الْخَلْقِ، وَدَرَّةِ الْمَفَاسِدِ عَنْهَا، وَدِينُ الْإِسْلَامِ مَنْ تَأَمَّلَهُ حَقَّ التَّأَمُّلِ تَأَمُّلاً مَبْنِيًّا عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ - عَرَفَ أَنَّهُ دِينُ الْحَقِّ، وَأَنَّهُ الدِّينُ الَّذِي لَا تَقُومُ مَصَالِحُ الْخَلْقِ إِلَّا بِهِ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ نَقِيسَ الْإِسْلَامَ بِمَا عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ الْيَوْمَ؛ فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ فَرَّطُوا فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، وَارْتَكَبُوا مُحَازِيرَ عَظِيمَةً، حَتَّى كَانُوا الْعَائِشِينَ بَيْنَهُمْ فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ يَعِيشُ فِي جَوْ غَيْرِ إِسْلَامِيٍّ.

وَالدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ - بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى - مُتَضَمِّنٌ لِحَمِيعِ الْمَصَالِحِ الَّتِي تَضَمَّنَتْهَا الْأَدْيَانُ السَّابِقَةُ، مُتَمَيِّزٌ عَلَيْهَا بِكَوْنِهِ صَالِحًا لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَأُمَّةٍ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَنَبِيَّهٖ مُحَمَّدًا ﷺ^[١].

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ^[٢]؟

فَقُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ الَّذِي رَبَّنِي وَرَبِّي جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعْمِهِ^[٣].....

وَمَعْنَى كَوْنِهِ صَاحِبًا لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَأُمَّةٍ: أَنَّ التَّمَسُّكَ بِهِ لَا يُتَابَعُ مَصَالِحِ الْأُمَّةِ فِي أَيِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَأُمَّةٍ، فَدِينُ الْإِسْلَامِ يَأْمُرُ بِكُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ، وَيَنْهَى عَنْ كُلِّ عَمَلٍ سَيِّئٍ، فَهُوَ يَأْمُرُ بِكُلِّ خُلُقٍ فَاضِلٍ، وَيَنْهَى عَنْ كُلِّ خُلُقٍ سَافِلٍ.

[١] هَذَا هُوَ الْأَصْلُ الثَّلَاثُ، وَهُوَ مَعْرِفَةُ الْإِنْسَانِ نَبِيَّهٖ مُحَمَّدًا ﷺ، وَتَحْصُلُ بِدِرَاسَةِ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَالْأَخْلَاقِ، وَالِدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ جَوَانِبِ حَيَاتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَلِهَذَا يَنْبَغِي لِكُلِّ إِنْسَانٍ يُرِيدُ أَنْ يَزِدَّادَ مَعْرِفَةَ نَبِيِّهِ وَإِيمَانًا بِهِ أَنْ يُطَالَعَ مِنْ سِيرَتِهِ مَا تَسَرَّفَ فِي حَرْبِهِ وَسَلْمِهِ، وَشِدَّتِهِ وَرَخَائِهِ، وَجَمِيعِ أَحْوَالِهِ، نَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الْمُتَّبِعِينَ لِرَسُولِهِ ﷺ، بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَأَنْ يَتَوَفَّانَا عَلَى ذَلِكَ، إِنَّهُ وَلِيُّهُ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ.

[٢] أَي: مَنْ هُوَ رَبُّكَ الَّذِي خَلَقَكَ، وَأَمَدَكَ، وَأَعَدَّكَ، وَرَزَقَكَ.

[٣] التَّرْبِيَّةُ: هِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الرَّعَايَةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا تَقْوِيمُ الْمَرْبِيِّ، وَيُشْعَرُ كَلَامُ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الرَّبَّ مَاخُودٌ مِنَ التَّرْبِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: «الَّذِي رَبَّنِي وَرَبِّي جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعْمِهِ» فَكُلُّ الْعَالَمِينَ قَدْ رَبَّاهُمُ اللَّهُ بِنِعْمِهِ، وَأَعَدَّهُمْ لِمَا خَلَقُوا لَهُ، وَأَمَدَّهُمْ بِرِزْقِهِ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي مُحَاوَرَةِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى ﴿طه: ٤٩-٥٠﴾ فَكُلُّ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ قَدْ رَبَّاهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِنِعْمِهِ.

وَهُوَ مَعْبُودِي، لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ^[١] وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾^[٢] [الفاتحة: ٢] وَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ^[٣].

وَنَعِمَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ عَلَى عِبَادِهِ كَثِيرَةً، لَا يُمَكِّنُ حَضْرَهَا، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ
تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨] فَاللَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَكَ وَأَعَدَّكَ، وَأَمَدَّكَ
وَرَزَقَكَ، فَهُوَ وَحْدَهُ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ.

[١] أَيُّ: وَهُوَ الَّذِي أَعْبَدُهُ وَأَتَذَلَّلُ لَهُ خُضُوعًا وَحُبَّةً وَتَعْظِيمًا، أَفْعُلُ مَا يَأْمُرُنِي
بِهِ، وَأَتْرُكُ مَا يَنْهَانِي عَنْهُ، فَلَيْسَ لِي أَحَدٌ أَعْبَدُهُ سِوَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ: لَا إِلَهَ
إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا
الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥].

[٢] اسْتَدَلَّ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ لِكَوْنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُرَبِّيًا لِجَمِيعِ الْخَلْقِ بِقَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] يَعْنِي الْوَصْفَ بِالْكَمَالِ وَالْجَلَالِ
وَالْعِظَمَةِ لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ: مُرَبِّيهِمْ بِالنِّعَمِ، وَخَالِقُهُمْ،
وَمَالِكُهُمْ، وَالْمُدَبِّرُ لَهُمْ، كَمَا شَاءَ عَزَّجَلَّ.

[٣] الْعَالَمُ: كُلُّ مَنْ سِوَى اللَّهِ، وَسَمُّوا عَالَمًا؛ لِأَنَّهُمْ عَلِمَ عَلَى خَالِقِهِمْ وَمَالِكِهِمْ
وَمُدَبِّرِهِمْ، فَفِي كُلِّ شَيْءٍ آيَةٌ لِلَّهِ تَذَلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ.

وَأَنَا - الْمُجِيبُ بِهَذَا - وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ، وَإِذَا كَانَ رَبِّي وَجَبَ عَلَيَّ أَنْ أَعْبُدَهُ
وَحْدَهُ.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ^[٢]؟

فَقُلْ بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ^[٣] وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا^[٤]؛

[٢] أَي: إِذَا قِيلَ لَكَ: بِأَيِّ شَيْءٍ عَرَفْتَ اللَّهَ عَزَّجَلَّ؟ فَقُلْ: عَرَفْتُهُ بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ.

[٣] الْآيَاتُ: جَمْعُ آيَةٍ، وَهِيَ الْعَلَامَةُ عَلَى الشَّيْءِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهِ وَتُبَيِّنُهُ.

وَآيَاتُ اللَّهِ تَعَالَى نَوْعَانِ: كَوْنِيَّةٌ وَشَرْعِيَّةٌ، فَالْكَوْنِيَّةُ هِيَ الْمَخْلُوقَاتُ، وَالشَّرْعِيَّةُ هِيَ الْوَحْيُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَوْلُ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ» مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ، إِذَا فَسَّرْنَا الْآيَاتِ بِأَنَّهَا الْآيَاتُ الْكَوْنِيَّةُ وَالشَّرْعِيَّةُ، أَوْ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْمُبَايِنِ الْمُغَايِرِ إِذَا خَصَّصْنَا الْآيَاتِ بِالْآيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ.

وَعَلَى كُلِّ: فَاللَّهُ عَزَّجَلَّ يُعَرِّفُ بِآيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ، وَهِيَ الْمَخْلُوقَاتُ الْعَظِيمَةُ، وَمَا فِيهَا مِنْ عَجَائِبِ الصَّنْعَةِ وَبَالِغِ الْحِكْمَةِ، وَكَذَلِكَ يُعَرِّفُ بِآيَاتِهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْعَدْلِ، وَالِاسْتِثْمَالِ عَلَى الْمَصَالِحِ، وَدَفْعِ الْمَفَاسِدِ.

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ^(١)

[٤] كُلُّ هَذِهِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ، وَكَمَالِ الْحِكْمَةِ، وَكَمَالِ الرَّحْمَةِ؛ فَالشَّمْسُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِكُونِهَا تَسِيرُ سَيْرًا مُتَّظِمًا بِدَيْعَا مُنْذُ خَلَقَهَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَإِلَى أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ تَعَالَى بِخَرَابِ الْعَالَمِ، فَهِيَ تَسِيرُ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨] وَهِيَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى بِحَجْمِهَا وَأَثَارِهَا، أَمَّا حَجْمُهَا فَعَظِيمٌ كَبِيرٌ، وَأَمَّا أَثَارُهَا فَمَا يَحْصُلُ

(١) من شعر أبي العتاهية. ديوانه (ص: ١٢٢)، وانظر: معاهد التنصيص (٢/ ٢٨٦).

وَالدَّلِيلُ^[١] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عَايَنَتْهُ أَلَيْلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]،

مِنْهَا مِنَ الْمَنَافِعِ لِلْأَجْسَامِ وَالْأَشْجَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْبِحَارِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى الشَّمْسِ -هَذِهِ الْآيَةُ الْعَظِيمَةُ- مَا مَدَى الْبُعْدِ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّا نَجِدُ حَرَارَتَهَا، هَذِهِ الْحَرَارَةُ الْعَظِيمَةُ.

ثُمَّ انْظُرْ مَاذَا يَحْدُثُ فِيهَا مِنَ الْإِضَاءَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا تَوْفِيرُ أَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ عَلَى النَّاسِ، فَإِنَّ النَّاسَ فِي النَّهَارِ يَسْتَعْنُونَ عَنْ كُلِّ إِضَاءَةٍ، وَيَحْصُلُ بِهَا مَصْلَحَةٌ كَبِيرَةٌ لِلنَّاسِ مِنْ تَوْفِيرِ أَمْوَالِهِمْ، وَيَعُدُّ هَذَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي لَا تُدْرِكُ إِلَّا الْيَسِيرُ مِنْهَا.

كَذَلِكَ الْقَمَرُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حَيْثُ قَدَرُهُ مَنَازِلَ، لِكُلِّ لَيْلَةٍ مَنَزَلَةٌ ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] فَهُوَ يَبْدُو صَغِيرًا، ثُمَّ يَكْبُرُ رُويْدًا رُويْدًا حَتَّىٰ يَكْمُلَ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى النِّقْصِ، وَهُوَ يُشَبِّهُ الْإِنْسَانَ؛ حَيْثُ إِنَّهُ يُخْلَقُ مِنْ ضَعْفٍ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَتَرَقَّى مِنْ قُوَّةٍ إِلَى قُوَّةٍ حَتَّىٰ يَعُودَ إِلَى الضَّعْفِ مَرَّةً أُخْرَى، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.

[١] أَيُّ: وَالِدُّ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عَايَنَتْهُ أَلَيْلٌ وَالنَّهَارُ﴾ إلخ. أَيُّ: مِنَ الْعَلَامَاتِ الْبَيِّنَةِ الْمُبَيِّنَةِ لِمَدْلُولِهَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فِي ذَاتِهِمَا وَاخْتِلَافِهِمَا، وَمَا أَوْدَعَ اللَّهُ فِيهِمَا مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادِ، وَتَقْلِبَاتِ أَحْوَالِهِمْ، وَكَذَلِكَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ فِي ذَاتِهِمَا وَسِيرِهِمَا وَانْتِظَامِهِمَا، وَمَا يَحْصُلُ بِذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادِ وَدَفْعِ مَضَارِّهِمْ.

وَقَوْلُهُ^[١٧] تَعَالَى: ﴿إِنَّا رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ثُمَّ نَهَى اللَّهُ الْعِبَادَ أَنْ يَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ أَوْ الْقَمَرِ وَإِنْ بَلَغَا مَبْلَغًا عَظِيمًا فِي نُفُوسِهِمْ؛ لِأَنَّهَا لَا يَسْتَحِقُّانِ الْعِبَادَةَ؛ لِكُونِهَا مَخْلُوقَيْنِ، وَإِنَّمَا الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي خَلَقَهُنَّ.

[٢] وَقَوْلُهُ: أَيُّ: مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الْآيَةَ، وَفِيهَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ:

أَوَّلًا: أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَلَوْ شَاءَ لَخَلَقَهَا بِلَحْظَةٍ، وَلَكِنَّهُ رَبَطَ الْمُسَبِّاتِ بِأَسْبَابِهَا، كَمَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ.

ثَانِيًا: أَنَّهُ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ، أَيُّ: عَلَا عَلَيْهِ عُلُوءًا خَاصًّا بِهِ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهَذَا عُنْوَانُ كَمَالِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ.

ثَالِثًا: أَنَّهُ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ، بِأَنْ يَجْعَلَ اللَّيْلَ غِشَاءً لِلنَّهَارِ، أَيُّ غِطَاءً لَهُ، فَهُوَ كَالثُّوبِ يُسَدُّ عَلَى ضَوْءِ النَّهَارِ فَيُعْطِيهِ.

رَابِعًا: أَنَّهُ جَعَلَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مَذَلَّلَاتٍ بِأَمْرِهِ جَلَّ سُلْطَانُهُ، يَأْمُرُهُنَّ بِمَا يَشَاءُ لِمَصْلَحَةِ الْعِبَادِ.

خَامِسًا: عُمُومُ مُلْكِهِ وَتَمَامُ سُلْطَانِهِ حَيْثُ كَانَ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ لَا لغيرِهِ.

سَادِسًا: عُمُومُ رُبُوبِيَّتِهِ لِلْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ.

وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ^[١]، وَالدَّلِيلُ^[٢] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ^[٣] وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ^[٤]﴾^[٥] الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا^[٦]

[١] يُشِيرُ الْمُؤَلِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - إِلَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى أَلْيَلُ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ، أَيُّ: هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ، أَوْ: هُوَ الَّذِي يُعْبَدُ لِاسْتِحْقَاقِهِ لِلْعِبَادَةِ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى أَنَّ كُلَّ مَنْ عُبِدَ فَهُوَ رَبٌّ، فَالْإِلَهَةُ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَاتَّخَذَهَا عِبَادُهَا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَيْسَتْ أَرْبَابًا، وَالرَّبُّ هُوَ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ.

[٢] أَيُّ: الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الرَّبَّ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ.

[٣] النَّدَاءُ مُوجَّهٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ مِنْ بَنِي آدَمَ، أَمَرَهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلَا يَجْعَلُوا لَهُ أَندَادًا، وَيُبَيِّنُ أَنَّهُ إِنَّمَا اسْتَحَقَّ الْعِبَادَةَ؛ لِكُونِهِ هُوَ الْخَالِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

[٤] قَوْلُهُ: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ هَذِهِ صِفَةٌ كَاشِفَةٌ تَعْلِلُ مَا سَبَقَ، أَيُّ: اعْبُدُوهُ؛ لِأَنَّهُ رَبُّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْ أَجْلِ كَوْنِهِ الرَّبَّ الْخَالِقَ كَانَ لِرَّامَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَهَذَا نَقُولُ يَلْزَمُ كُلَّ مَنْ أَقَرَّ بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ أَنْ يَعْْبُدَهُ وَحْدَهُ، وَإِلَّا كَانَ مُتَنَاقِضًا.

[٥] أَيُّ: مِنْ أَجْلِ أَنْ تَحْصُلُوا عَلَى التَّقْوَى، وَالتَّقْوَى هِيَ اتِّخَاذُ وَقَايَةٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِاتِّبَاعِ أَوْامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ.

[٦] أَيُّ: جَعَلَهَا فِرَاشًا وَمَهَادًا نَسْتَمْتِعُ فِيهَا مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ وَلَا تَعَبٍ، كَمَا يَنَامُ الْإِنْسَانُ عَلَى فِرَاشِهِ.

وَالسَّمَاءَ بِنَاءً^[١] وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً^[٢] فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ^[٣] فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا^[٤] وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى^[٦] -: «الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة».

[١] أي: فوفنا؛ لأن البناء يصير فوق السماء بناء لأهل الأرض، وهي سقف محفوظ، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

[٢] أي: أنزل من العلو من السحاب ماء طهورًا، كما قال تعالى: ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

[٣] أي: عطاء لكم، وفي آية أخرى: ﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ﴾ [النازعات: ٣٣].

[٤] أي: لا تجعلوا لهذا الذي خلقكم، وخلق الذين من قبلكم، وجعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءً، وأنزل لكم من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم - لا تجعلوا له أندادا تعبدونها كما تعبدون الله، أو تحبونها كما تحبون الله؛ فإن ذلك غير لائق بكم لا عقلا ولا شرعا.

[٥] أي: تعلمون أنه لا ند له، وأنه بيده الخلق والرزق والتدبير؛ فلا تجعلوا له شريكا في العبادة.

[٦] هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي الحافظ المشهور، صاحب التفسير والتاريخ، من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، توفي سنة أربع وسبعين وسبع مئة.

وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا^(١): مِثْلُ الْإِسْلَامِ، وَالْإِيمَانِ،

[١] لَمَّا بَيَّنَّ الْمُؤَلَّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، بَيَّنَّ فِيهَا يَا نَبِيَّ شَيْئًا مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، فَقَالَ: وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ مِثْلُ الْإِسْلَامِ، وَالْإِيمَانِ، وَالْإِحْسَانِ.

وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ - الْإِسْلَامُ، وَالْإِيمَانُ، وَالْإِحْسَانُ - هِيَ الدِّينُ كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتُحْجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحَفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوُلُونَ فِي الْبُنْيَانِ». ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»^(١) فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ هِيَ الدِّينَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهَا مُتَضَمِّنَةٌ لِلدِّينِ كُلِّهِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٨).

وَالْإِحْسَانِ؛ وَمِنْهُ الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالْإِنَابَةُ، وَالِاسْتِعَانَةُ، وَالِاسْتِعَاذَةُ، وَالِاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا كُلُّهَا اللَّهُ تَعَالَى^[١]. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِعِغْرِ اللَّهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾^[٢] [المؤمنون: ١١٧].

[١] أَي: كُلُّ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ بِمَا ذُكِرَ وَغَيْرُهُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلَا يَحِلُّ صَرْفُهَا لِعِغْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

[٢] ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - جُمْلَةً مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، وَذَكَرَ أَنَّ مَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِعِغْرِ اللَّهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ، وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ وَبِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الْآيَةِ الْأُولَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ الْمَسَاجِدَ وَهِيَ مَوَاضِعُ السُّجُودِ أَوْ أَعْضَاءُ السُّجُودِ لِلَّهِ، وَرَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ قَوْلَهُ: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ أَي: لَا تَعْبُدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ فَتَسْجُدُوا لَهُ.

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ بِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيَّنَّ أَنَّ مَنْ يَدْعُو مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَإِنَّهُ كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ بُرْهَانٌ عَلَى تَعَدُّدِ

وَفِي الْحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ مُخَّ الْعِبَادَةِ». وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ^[١] [عافر: ٦٠].

الْإِلَهَةِ، فَهَذِهِ الصِّفَةُ ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ صِفَةُ كَاشِفَةِ مُبَيِّنَةٍ لِلْأَمْرِ، وَلَيْسَتْ صِفَةً مُقَيَّدَةً تُخْرِجُ مَا فِيهِ بُرْهَانٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ بُرْهَانٌ عَلَى أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ.

[١] هَذَا شُرُوعٌ مِنَ الْمُؤَلَّفِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي أُدْلَةِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي قَوْلِهِ: «وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا مِثْلَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ وَمِنْهُ الدُّعَاءُ...» إلخ، فَبَدَأَ رَحِمَهُ اللَّهُ بِذِكْرِ الْأُدْلَةِ عَلَى الدُّعَاءِ، وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَفْصِيلُ أُدْلَةِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ.

وَاسْتَدَلَّ الْمُؤَلَّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِمَا يُرَوَّى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الدُّعَاءُ مُخَّ الْعِبَادَةِ» ^(١) وَاسْتَدَلَّ كَذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

فَدَلَّتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى أَنَّ الدُّعَاءَ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا صَحَّ أَنْ يُقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، فَمَنْ دَعَا غَيْرَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِشَيْءٍ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ، سَوَاءٌ كَانَ الْمَدْعُو حَيًّا أَوْ مَيِّتًا. وَمَنْ دَعَا حَيًّا بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِثْلَ أَنْ يَقُولَ: يَا فُلَانُ أَطْعِمْنِي، يَا فُلَانُ أَسْقِنِي. فَلَا شَيْءَ فِيهِ، وَمَنْ دَعَا مَيِّتًا أَوْ غَائِبًا بِمِثْلِ هَذَا فَإِنَّهُ مُشْرِكٌ؛ لِأَنَّ الْمَيِّتَ أَوْ الْغَائِبَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقُومَ بِمِثْلِ هَذَا، فَدَعَاؤُهُ إِيَّاهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ لَهُ تَصَرُّفًا فِي الْكَوْنِ، فَيَكُونُ بِذَلِكَ مُشْرِكًا.

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب فضل الدعاء، رقم (٣٣٧١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَدَلِيلُ الْخَوْفِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^[١]

[آل عمران: ١٧٥].

وَأَعْلَمُ أَنَّ الدُّعَاءَ نَوْعَانِ: دُعَاءُ مَسْأَلَةٍ وَدُعَاءُ عِبَادَةٍ.

فَدُعَاءُ الْمَسْأَلَةِ هُوَ دُعَاءُ الطَّلَبِ، أَيْ طَلَبِ الْحَاجَاتِ، وَهُوَ عِبَادَةٌ إِذَا كَانَ مِنَ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ؛ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ الْإِفْتِقَارَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَاللُّجُوءَ إِلَيْهِ، وَاعْتِقَادَ أَنَّهُ قَادِرٌ كَرِيمٌ وَاسِعُ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ. وَيَجُوزُ إِذَا صَدَرَ مِنَ الْعَبْدِ لِمَثَلِهِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ إِذَا كَانَ الْمَدْعُوُّ يَعْقِلُ الدُّعَاءَ، وَيَقْدِرُ عَلَى الْإِجَابَةِ، كَمَا سَبَقَ فِي قَوْلِ الْقَائِلِ: يَا فَلَانُ أَطْعِمْنِي.

وَأَمَّا دُعَاءُ الْعِبَادَةِ فَإِنْ يَتَعَبَّدُ بِهِ لِلْمَدْعُوِّ؛ طَلَبًا لِنَوَائِهِ، وَخَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ، وَهَذَا لَا يَصِحُّ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَصَرَفُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ شِرْكٌ أَكْبَرُ، مُخْرِجٌ عَنِ الْمِلَّةِ، وَعَلَيْهِ يَقَعُ الْوَعِيدُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

[١] الْخَوْفُ: هُوَ الدُّعْرُ، وَهُوَ انْفِعَالٌ يَحْصُلُ بِتَوَقُّعِ مَا فِيهِ هَلَاكٌ أَوْ ضَرَرٌ أَوْ أَذًى، وَقَدْ نَهَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ خَوْفِ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، وَأَمَرَ بِخَوْفِهِ وَخَدَهُ.

وَالْخَوْفُ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: خَوْفٌ طَبِيعِيٌّ كَخَوْفِ الْإِنْسَانِ مِنَ السَّبْعِ وَالنَّارِ وَالْغَرَقِ، وَهَذَا لَا يُلَامُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [الفصل: ١٨] لَكِنْ إِذَا كَانَ هَذَا الْخَوْفُ - كَمَا ذَكَرَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ - سَبَبًا لِتَرْكِ وَاجِبٍ أَوْ فِعْلِ مُحَرَّمٍ كَانَ حَرَامًا؛ لِأَنَّ مَا كَانَ سَبَبًا لِتَرْكِ وَاجِبٍ أَوْ فِعْلِ مُحَرَّمٍ فَهُوَ حَرَامٌ، وَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^[١] [الكهف: ١١٠].

وَالْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يَكُونُ مَحْمُودًا، وَيَكُونُ غَيْرَ مَحْمُودٍ.

فَالْمَحْمُودُ مَا كَانَتْ غَايَتُهُ أَنْ يَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، بِحَيْثُ يَحْمِلُكَ عَلَى فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ، فَإِذَا حَصَلَتْ هَذِهِ الْغَايَةُ سَكَنَ الْقَلْبُ، وَاطْمَأَنَّ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ الْفَرَحُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ، وَالرَّجَاءُ لِثَوَابِهِ.

وَغَيْرُ الْمَحْمُودِ مَا يَحْمِلُ الْعَبْدَ عَلَى الْيَأْسِ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَالْقَنُوطِ، وَحَيْثُ يَتَحَسَّرُ الْعَبْدُ، وَيَتَكَمَّشُ، وَرَبَّمَا يَتِمَادَى فِي الْمَعْصِيَةِ؛ لِقُوَّةِ يَأْسِهِ.

النَّوعُ الثَّانِي: خَوْفُ الْعِبَادَةِ، أَنْ يَخَافَ أَحَدًا يَتَعَبَّدُ بِالْخَوْفِ لَهُ، فَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى، وَصَرَفُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى شُرْكٌ أَكْبَرُ.

النَّوعُ الثَّالِثُ: خَوْفُ السَّرِّ، كَأَنْ يَخَافَ صَاحِبَ الْقَبْرِ، أَوْ وَلِيًّا بَعِيدًا عَنْهُ لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ، لَكِنَّهُ يَخَافُهُ خِيفَةً سَرًّا، فَهَذَا أَيْضًا ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ مِنَ الشُّرُكِ.

[١] الرَّجَاءُ طَمَعُ الْإِنْسَانِ فِي أَمْرٍ قَرِيبٍ الْمَنَالِ، وَقَدْ يَكُونُ فِي بَعِيدِ الْمَنَالِ تَنْزِيلًا لَهُ مَنَزِلَةٌ الْقَرِيبِ.

وَالرَّجَاءُ الْمُتَضَمِّنُ لِلذُّلِّ وَالْخُضُوعِ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، وَصَرَفُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى شُرْكٌ، إِمَّا أَصْغَرُ وَإِمَّا أَكْبَرُ، بِحَسَبِ مَا يَقُومُ بِقَلْبِ الرَّاجِي. وَقَدْ اسْتَدَلَّ الْمُؤَلِّفُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّجَاءَ الْمَحْمُودَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَجَا ثَوَابَهَا، أَوْ تَابَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ وَرَجَا قَبُولَ تَوْبَتِهِ، فَأَمَّا الرَّجَاءُ بِلَا عَمَلٍ فَهُوَ غُرُورٌ وَمَنْ مَذْمُومٌ.

وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]،
وَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^[١] [الطلاق: ٣].

[١] التَّوَكُّلُ عَلَى الشَّيْءِ الْإِعْتِمَادُ عَلَيْهِ. وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى: الْإِعْتِمَادُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى كِفَايَةً وَحَسْبًا فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ، وَهُوَ مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ وَعَلَامَاتِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وَإِذَا صَدَقَ الْعَبْدُ فِي اعْتِمَادِهِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى كَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مَا أَهَمَّهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أَيُّ: كَافِيهِ، ثُمَّ طَمَأَنَ الْمُتَوَكِّلُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق: ٣] فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ أَرَادَهُ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ التَّوَكُّلَ أَنْوَاعٌ:

الْأَوَّلُ: التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ وَعَلَامَاتِ صِدْقِهِ، وَهُوَ وَاجِبٌ لَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِهِ، وَسَبَقَ دَلِيلُهُ.

الثَّانِي: تَوَكُّلُ السَّرِّ بِأَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى مَيِّتٍ فِي جَلْبِ مَنَفَعَةٍ، أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ، فَهَذَا شُرْكٌ أَكْبَرُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقَعُ إِلَّا مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا الْمَيِّتَ تَصَرُّفًا سِرِّيًّا فِي الْكَوْنِ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا، أَوْ وَلِيًّا، أَوْ طَاغُوتًا عَدُوًّا لِلَّهِ تَعَالَى.

الثَّالِثُ: التَّوَكُّلُ عَلَى الْغَيْرِ فِيمَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ الْغَيْرُ، مَعَ الشُّعُورِ بِعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِ وَانْحِطَاطِ مَرْتَبَةِ الْمُتَوَكِّلِ عَنْهُ، مِثْلُ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَيْهِ فِي حُصُولِ الْمَعَاشِ وَنَحْوِهِ، فَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الشُّرْكِ الْأَصْغَرِ؛ لِقُوَّةِ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِهِ وَالْإِعْتِمَادِ عَلَيْهِ. أَمَّا لَوْ اعْتَمَدَ عَلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ سَبَبٌ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي قَدَّرَ ذَلِكَ عَلَى يَدِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا بَأْسَ بِهِ، إِذَا كَانَ لِلْمُتَوَكِّلِ عَلَيْهِ أَثَرٌ صَحِيحٌ فِي حُصُولِهِ.

وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ^[١] وَالرَّهْبَةِ^[٢] وَالْخُشُوعِ^[٣]،

الرَّابِعُ: التَّوَكُّلُ عَلَى الْغَيْرِ فِيمَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ الْمُتَوَكِّلُ، بِحَيْثُ يُنِيبُ غَيْرَهُ فِي أَمْرٍ تَجُوزُ فِيهِ النِّيَابَةُ، فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ بِدَلَالَةِ الْكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، وَالْإِجْمَاعِ:

فَقَدْ قَالَ يَعْقُوبُ لِبَنِيهِ: ﴿يَبْنَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧].

وَوَكَّلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّدَقَةِ عُمَالًا^(١) وَحُفَظًا^(٢)، وَوَكَّلَ فِي إِثْبَاتِ الْحُدُودِ وَإِقَامَتِهَا^(٣)، وَوَكَّلَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي هَدْيِهِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِجُلُودِهَا وَجِلَالِهَا^(٤)، وَأَنْ يَنْحَرَ مَا بَقِيَ مِنَ الْمِئَةِ بَعْدَ أَنْ نَحَرَ ﷺ بِيَدِهِ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ^(٥).
وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ عَلَى جَوَازِ ذَلِكَ فَمَعْلُومٌ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ.

[١] الرَّغْبَةُ: مَحَبَّةُ الْوُصُولِ إِلَى الشَّيْءِ الْمَحْبُوبِ.

[٢] وَالرَّهْبَةُ: الْخَوْفُ الْمُثْمِرُ لِلْهَرَبِ مِنَ الْمَخُوفِ، فَهِيَ خَوْفٌ مَقْرُونٌ بِعَمَلٍ.

[٣] الْخُشُوعُ: الذُّلُّ وَالتَّطَامُّنُ لِعِظَمَةِ اللَّهِ، بِحَيْثُ يَسْتَسْلِمُ لِقَضَائِهِ الْكَوْنِيَّ

وَالشَّرْعِيَّ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيل، باب احتيال العامل ليهدي له، رقم (٦٩٧٩)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال، رقم (١٨٣٢)، من حديث أبي حميد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا، رقم (٢٣١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب الوكالة في الحدود، رقم (٢٣١٤)، ومسلم: كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى، رقم (١٦٩٧)، من حديث زيد بن خالد، وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب يتصدق بجلود الهدي، رقم (١٧١٧)، ومسلم: كتاب الحج، باب في الصدقة بلحوم الهدي وجلودها وجلالها، رقم (١٣١٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَعْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾^[١] [الأنبياء: ٩٠].

وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾^[٢] [البقرة: ١٥٠].

[١] فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى الْخُلَصَّ مِنْ عِبَادِهِ بِأَنَّهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ تَعَالَى رَعْبًا وَرَهْبًا مَعَ الْخُشُوعِ لَهُ، وَالِدُعَاءُ هُنَا شَامِلٌ لِدُعَاءِ الْعِبَادَةِ وَدُعَاءِ الْمَسْأَلَةِ، فَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدَهُ، وَطَمَعًا فِي ثَوَابِهِ، مَعَ خَوْفِهِمْ مِنْ عِقَابِهِ وَأَثَارِ ذُنُوبِهِمْ، وَالْمُؤْمِنُ يَنْبَغِي أَنْ يَسْعَى إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَيُغْلِبُ الرَّجَاءُ فِي جَانِبِ الطَّاعَةِ لِيَنْشَطَ عَلَيْهَا وَيُؤَمِّلَ قَبُولَهَا، وَيُغْلِبُ الْخَوْفَ إِذَا هَمَّ بِالْمَعْصِيَةِ؛ لِيَهْرَبَ مِنْهَا، وَيَنْجُوَ مِنْ عِقَابِهَا.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: يُغْلِبُ جَانِبَ الرَّجَاءِ فِي حَالِ الْمَرَضِ وَجَانِبَ الْخَوْفِ فِي حَالِ الصَّحَّةِ؛ لِأَنَّ الْمَرِيضَ مُتَكَبِّرٌ، ضَعِيفُ النَّفْسِ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجَلُهُ فَيَمُوتَ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَفِي حَالِ الصَّحَّةِ يَكُونُ نَشِيطًا مُؤَمِّلًا طَوَّلَ الْبَقَاءِ، فَيَحْمِلُهُ ذَلِكَ عَلَى الْأَشْرِ وَالْبَطَرِ، فَيُغْلِبُ جَانِبَ الْخَوْفِ؛ لِيَسْلَمَ مِنْ ذَلِكَ.

وَقِيلَ: يَكُونُ رَجَاؤُهُ وَخَوْفُهُ وَاحِدًا سَوَاءً؛ لِثَلَا يَحْمِلُهُ الرَّجَاءُ عَلَى الْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَالْخَوْفُ عَلَى الْيَأْسِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَكِلَاهُمَا قَبِيحٌ مُهْلِكٌ لِصَاحِبِهِ.

[٢] الْخَشْيَةُ: هِيَ الْخَوْفُ الْمَبْنِي عَلَى الْعِلْمِ بِعَظَمَةِ مَنْ يُخْشَاهُ وَكَمَالِ سُلْطَانِهِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] أَيِ: الْعُلَمَاءِ بِعَظَمَتِهِ وَكَمَالِ سُلْطَانِهِ، فَهِيَ أَحْصَى مِنَ الْخَوْفِ.

وَيَتَّضِحُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا بِالْمِثَالِ، فَإِذَا خِفْتَ مِنْ شَخْصٍ لَا تَدْرِي هَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَيْكَ أَمْ لَا فَهَذَا خَوْفٌ، وَإِذَا خِفْتَ مِنْ شَخْصٍ تَعْلَمُ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَيْكَ فَهَذِهِ خَشْيَةٌ.

وَدَلِيلُ الْإِنَابَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾^[١] [الزمر: ٥٤].

وَدَلِيلُ الْإِسْتِعَانَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]،
وَفِي الْحَدِيثِ: «إِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»^[٢].

وَيُقَالُ فِي أَقْسَامِ أَحْكَامِ الْحَشِيَّةِ مَا يُقَالُ فِي أَقْسَامِ أَحْكَامِ الْخَوْفِ.

[١] الْإِنَابَةُ: الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ بِالْقِيَامِ بِطَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ، وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ مَعْنَى التَّوْبَةِ، إِلَّا أَنَّهَا أَرْقُ مِنْهَا لِمَا تُشْعِرُ بِهِ مِنَ الْإِعْتِمَادِ عَلَى اللَّهِ وَاللُّجُوءِ إِلَيْهِ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى.

وَدَلِيلُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾، وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ الْإِسْلَامُ الشَّرْعِيُّ، وَهُوَ الْإِسْتِسْلَامُ لِأَحْكَامِ اللَّهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِسْلَامَ لِلَّهِ تَعَالَى نَوْعَانِ:

الْأَوَّلُ: إِسْلَامٌ كَوْنِيٌّ، وَهُوَ الْإِسْتِسْلَامُ لِحُكْمِهِ الْكَوْنِيِّ، وَهَذَا عَامٌّ لِكُلِّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، مِنْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ، وَبَرٍّ وَفَاجِرٍ، لَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْتَكْبِرَ عَنْهُ، وَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِيجَابًا﴾ [آل عمران: ٨٣].

الثَّانِي: إِسْلَامٌ شَرْعِيٌّ، وَهُوَ الْإِسْتِسْلَامُ لِحُكْمِهِ الشَّرْعِيِّ، وَهَذَا خَاصٌّ بِمَنْ قَامَ بِطَاعَتِهِ مِنَ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ بِإِحْسَانٍ، وَدَلِيلُهُ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ، وَمِنْهُ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

[٢] الْإِسْتِعَانَةُ طَلَبُ الْعَوْنِ وَهِيَ أَنْوَاعٌ:

الْأَوَّلُ: الْإِسْتِعَانَةُ بِاللَّهِ وَهِيَ: الْإِسْتِعَانَةُ الْمُتَضَمِّنَةُ لِكَمَالِ الدَّلِّ مِنَ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ،

وَتَفْوِضِ الْأَمْرَ إِلَيْهِ، وَاعْتِقَادِ كِفَايَتِهِ، وَهَذِهِ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى.

وَدَلِيلُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وَوَجْهُ الْإِخْتِصَاصِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ مَنَّ بِالْمَعْمُولِ ﴿إِيَّاكَ﴾ وَقَاعِدَةُ اللُّغَةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ أَنَّ تَقْدِيمَ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ يُفِيدُ الْحُضَرَ وَالْإِخْتِصَاصَ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ صَرَفُ هَذَا النَّوعِ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى شَرْكًَا مُخْرِجًا عَنِ الْمِلَّةِ.

الثَّانِي: الْإِسْتِعَانَةُ بِالْمَخْلُوقِ عَلَى أَمْرٍ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَهَذِهِ عَلَى حَسَبِ الْمُسْتَعَانَ عَلَيْهِ، فَإِنْ كَانَتْ عَلَى بَرٍّ فَهِيَ جَائِزَةٌ لِلْمُسْتَعِينَ مَشْرُوعَةٌ لِلْمُعِينِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢].

وَإِنْ كَانَتْ عَلَى إِثْمٍ فَهِيَ حَرَامٌ عَلَى الْمُسْتَعِينَ وَالْمُعِينِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِلْتِمَادِ وَالْمُدُونِ﴾ [المائدة: ٢].

وَإِنْ كَانَتْ عَلَى مُبَاحٍ فَهِيَ جَائِزَةٌ لِلْمُسْتَعِينَ وَالْمُعِينِ، لَكِنَّ الْمُعِينَ قَدْ يُثَابُ عَلَى ذَلِكَ ثَوَابَ الْإِحْسَانِ إِلَى الْغَيْرِ، وَمَنْ تَمَّ تَكُونُ فِي حَقِّهِ مَشْرُوعَةٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

الثَّالِثُ: الْإِسْتِعَانَةُ بِمَخْلُوقٍ حَيٍّ حَاضِرٍ غَيْرِ قَادِرٍ، فَهَذِهِ لَغْوٌ لَا طَائِلَ تَحْتَهَا، مِثْلُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِشَخْصٍ ضَعِيفٍ عَلَى حِمْلِ شَيْءٍ ثَقِيلٍ.

الرَّابِعُ: الْإِسْتِعَانَةُ بِالْأَمْوَاتِ مُطْلَقًا أَوْ بِالْأَحْيَاءِ عَلَى أَمْرٍ غَائِبٍ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مُبَاشَرَتِهِ فَهَذَا شِرْكٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقَعُ إِلَّا مِنْ شَخْصٍ يَعْتَقِدُ أَنَّ هَؤُلَاءِ تَصَرُّفًا خَفِيًّا فِي الْكَوْنِ.

وَدَلِيلُ الْإِسْتِعَاذَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]. وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(١) [الناس: ١].

الخامس: الاستِعَاذَةُ بِالْأَعْمَالِ وَالْأَحْوَالِ الْمَحْبُوبَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذِهِ مَشْرُوعَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وَقَدْ اسْتَدَلَّ الْمُؤَلِّفُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- لِلنَّوعِ الْأَوَّلِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وَقَوْلِهِ ﷺ: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»^(١).

[١] الْإِسْتِعَاذَةُ: طَلَبُ الْإِعَاذَةِ، وَالْإِعَاذَةُ الْحِمَايَةُ مِنْ مَكْرُوهِ، فَالْمُسْتَعِذُ مُحْتَمٍ بِمَنْ اسْتَعَاذَ بِهِ وَمُعْتَصِمٌ بِهِ.

وَالْإِسْتِعَاذَةُ أَنْوَاعٌ:

الأول: الْإِسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ الْمُتَضَمُّنَةُ لِكَمَالِ الْإِفْتِقَارِ إِلَيْهِ، وَالْإِعْتِصَامِ بِهِ، وَاعْتِقَادِ كِفَايَتِهِ، وَتَمَامِ حِمَايَتِهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَاضِرٍ أَوْ مُسْتَقْبَلٍ، صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ، بَشَرٍ أَوْ غَيْرِ بَشَرٍ.

وَدَلِيلُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ② إِلَى آخِرِ السُّورَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ.

الثاني: الْإِسْتِعَاذَةُ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ كَكَلَامِهِ وَعَظَمَتِهِ وَعِزَّتِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥١٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»^(١).

وَقَوْلُهُ: «أَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي»^(٢).

وَقَوْلُهُ فِي دُعَاءِ الْأَلَمِ: «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَازِرُ»^(٣).

وَقَوْلُهُ: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ»^(٤).

وَقَوْلُهُ ﷺ حِينَ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] فَقَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»^(٥).

الثَّالِثُ: الْإِسْتِعَاذَةُ بِالْأَمْوَاتِ أَوْ بِالْأَحْيَاءِ غَيْرِ الْحَاضِرِينَ الْقَادِرِينَ عَلَى الْعَوْذِ، فَهَذَا شِرْكٌ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْإِنِّ فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾

[الجن: ٦].

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، رقم (٢٧٠٨)، من حديث خولة بنت حكيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢٥٠)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، رقم (٥٠٧٤)، والنسائي: كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الخسف، رقم (٥٥٢٩)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى، رقم (٣٨٧١)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب استحباب وضع يده على موضع الألم، رقم (٢٢٠٢)، من حديث عثمان بن أبي العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، رقم (٤٦٢٨) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الرَّابِعُ: الإِسْتِعَاذَةُ بِمَا يُمَكِّنُ الْعَوْدُ بِهِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَوْ الْأَمَاكِنِ أَوْ غَيْرَهَا فَهَذَا جَائِزٌ.

وَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذِكْرِ الْفِتَنِ: «مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفُهَا، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ» ^(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَدْ بَيَّنَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْمَلْجَأَ وَالْمَعَاذَ بِقَوْلِهِ: «فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ» الْحَدِيثُ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ ^(٢).

وَفِي صَحِيحِهِ أَيْضًا عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ سَرَقَتْ، فَأُتِيَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ فَعَاذَتْ بِأُمِّ سَلَمَةَ» ^(٣) الْحَدِيثُ.

وَفِي صَحِيحِهِ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَعُودُ عَائِذٌ بِالْبَيْتِ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ...» ^(٤) الْحَدِيثُ.

وَلَكِنْ إِنْ اسْتَعَاذَ مِنْ شَرِّ ظَالِمٍ وَجَبَ إِيوَاؤُهُ وَإِعَاذَتُهُ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ، وَإِنْ اسْتَعَاذَ لِيَتَوَصَّلَ إِلَى فِعْلٍ مَحْظُورٍ أَوْ الْهَرَبِ مِنْ وَاجِبٍ حَرْمٍ إِيوَاؤُهُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦٠١)، ومسلم: كتاب الفتن، باب نزول الفتن كمواقع القطر، رقم (٢٨٨٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفتن، باب نزول الفتن كمواقع القطر، رقم (٢٨٨٧)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، رقم (١٦٨٩).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الفتن، باب الحسف بالجيش الذي يؤم البيت، رقم (٢٨٨٢).

وَدَلِيلُ الْإِسْتِغَاثَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾^[١]

[الأنفال: ٩].

[١] الْإِسْتِغَاثَةُ: طَلَبُ الْغَوْثِ، وَهُوَ الْإِنْقَاضُ مِنَ الشَّدَّةِ وَالهَلَكَ، وَهُوَ أَقْسَامٌ:
الْأَوَّلُ: الْإِسْتِغَاثَةُ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهَذَا مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ وَأَكْمَلِهَا، وَهُوَ دَأْبُ
الرُّسُلِ وَاتِّبَاعِهِمْ.

وَدَلِيلُهُ مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي
مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ وَكَانَ ذَلِكَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ حِينَ نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى
الْمُشْرِكِينَ فِي أَلْفٍ رَجُلٍ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِئَةٍ وَبِضْعَةِ عَشَرَ رَجُلًا، فَدَخَلَ الْعَرِيشَ
يُنَاشِدُ رَبَّهُ عَزَّوَجَلَّ، رَافِعًا يَدَيْهِ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي،
اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ» وَمَا زَالَ يَسْتَغِيثُ
بِرَبِّهِ رَافِعًا يَدَيْهِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ
عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَفَاكَ مُنَاشِدَتُكَ رَبَّكَ؛ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ
لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَانْزَلِ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ^(١).

الثَّانِي: الْإِسْتِغَاثَةُ بِالْأَمْوَاتِ أَوْ بِالْأَحْيَاءِ غَيْرِ الْحَاضِرِينَ الْقَادِرِينَ عَلَى الْإِغَاثَةِ،
فَهَذَا شَرُّهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ إِلَّا مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ لَهُوْلَاءِ نَصْرًا خَفِيًّا فِي الْكُونِ، فَيَجْعَلُ لَهُمْ
حِطًّا مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَمَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ
الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، رقم (١٧٦٣)، من
حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَدَلِيلُ الذَّبْحِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣) لَا شَرِيكَ لَهُ. ﴿١﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، وَمِنْ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ».

الثَّالِثُ: الإِسْتِغَاثَةُ بِالْأَحْيَاءِ الْعَالَمِينَ الْقَادِرِينَ عَلَى الْإِغَاثَةِ، فَهَذَا جَائِزٌ كَالِإِسْتِغَاثَةِ بِهِمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ مُوسَى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِالَّذِي مِنْ شَيْعِنِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

الرَّابِعُ: الإِسْتِغَاثَةُ بِحَيٍّ غَيْرِ قَادِرٍ مِنْ غَيْرٍ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ لَهُ قُوَّةَ خَفِيَّةٍ، مِثْلَ أَنْ يَسْتَعِيْثَ الْغَرِيقُ بِرَجُلٍ مُشْلُولٍ، فَهَذَا لَغْوٌ وَسُخْرِيَّةٌ بِمَنْ اسْتَعَاثَ بِهِ، فَيُمْنَعُ مِنْهُ هَذِهِ الْعِلَّةُ، وَلِإِلْعَالِ أُخْرَى وَهِيَ الْغَرِيقُ رَبُّمَا اغْتَرَّ بِذَلِكَ غَيْرُهُ فَتَوَهَّمُ أَنَّ هَذَا الْمَشْلُولَ قُوَّةَ خَفِيَّةٍ يُنْقِذُ بِهَا مِنَ الشَّدَّةِ.

[١] الذَّبْحُ إِزْهَاقُ الرُّوحِ بِإِرَاقَةِ الدَّمِ عَلَى وَجْهِ مَخْصُوصٍ.

وَيَقَعُ عَلَى وَجْهِهِ:

الأَوَّلُ: أَنْ يَقَعَ عِبَادَةٌ بِأَنْ يَقْصِدَ بِهِ تَعْظِيمَ الْمَذْبُوحِ لَهُ، وَالتَّذَلُّلَ لَهُ، وَالتَّقَرُّبَ إِلَيْهِ، فَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَصَرَفَهُ لِغَيْرِ اللَّهِ شَرْكَ أَكْبَرُ.

وَدَلِيلُهُ مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣) لَا شَرِيكَ لَهُ. ﴿٢﴾

الثَّانِي: أَنْ يَقَعَ إِكْرَامًا لِضَيْفٍ أَوْ وَلِيْمَةٍ لِعُرْسٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا مَأْمُورٌ بِهِ، إِمَّا وَجُوبًا أَوْ اسْتِحْبَابًا؛ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ

وَدَلِيلُ النَّذْرِ^[١] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾^[٢]

[الإنسان: ٧].

ضَيْفُهُ^(١) وَقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ: «أَوْلِمَ وَلَوْ بِشَاةٍ»^(٢).

الثَّالِثُ: أَنْ يَقَعَ عَلَى وَجْهِ التَّمَتُّعِ بِالْأَكْلِ أَوْ الْإِتِّجَارِ بِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا مِنْ قِسْمِ الْمُبَاحِ، فَلَا ضُلَّ فِيهِ الْإِبَاحَةُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيئُنَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٢].

وَقَدْ يَكُونُ مَطْلُوبًا أَوْ مِنْهِيًّا عَنْهُ حَسَبًا يَكُونُ وَسِيلَةً لَهُ.

[١] أَيُّ: دَلِيلُ كَوْنِ النَّذْرِ مِنَ الْعِبَادَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ

مُسْتَطِيرًا﴾.

[٢] وَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ أَنْتَنِي عَلَيْهِمْ لِإِيْفَائِهِمُ النَّذَرَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ ذَلِكَ، وَكُلُّ مُحَبِّبٍ لِلَّهِ مِنَ الْأَعْمَالِ فَهُوَ عِبَادَةٌ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾.

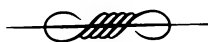
وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّذَرَ الَّذِي أَمْتَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ لِأَيِّ الْقَائِمِينَ بِهِ هُوَ جَمِيعُ الْعِبَادَاتِ الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، فَإِنَّ الْعِبَادَاتِ الْوَاجِبَةَ إِذَا شَرَعَ فِيهَا الْإِنْسَانُ فَقَدِ التَّزَمَ بِهَا، وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، رَقْمُ (٦٠١٨)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الْحَثِّ عَلَى إِكْرَامِ الْجَارِ وَالضَّيْفِ، رَقْمُ (٤٧)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ النِّكَاحِ، بَابُ كَيْفَ يَدْعَى لِلْمَتْرُوجِ، رَقْمُ (٥١٥٥)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ النِّكَاحِ، بَابُ الصَّدَاقِ، رَقْمُ (١٤٢٧)، مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالنَّذْرُ الَّذِي هُوَ الزَّامُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ مَا، أَوْ طَاعَةَ اللَّهِ غَيْرِ وَاجِبَةٍ مَكْرُوهَةٍ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّهُ مُحَرَّمٌ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ النَّذْرِ وَقَالَ: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ»^(١).

وَمَعَ ذَلِكَ فَإِذَا نَذَرَ الْإِنْسَانُ طَاعَةَ اللَّهِ وَجَبَ عَلَيْهِ فِعْلُهَا؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعهُ»^(٢).

وَالْخُلَاصَةُ: أَنَّ النَّذْرَ يُطْلَقُ عَلَى الْعِبَادَاتِ الْمَفْرُوضَةِ عُمُومًا، وَيُطْلَقُ عَلَى النَّذْرِ الْخَاصِّ، وَهُوَ الزَّامُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَقَدْ قَسَمَ الْعُلَمَاءُ النَّذْرَ الْخَاصَّ إِلَى أَقْسَامٍ، وَحَلَّ بِسَطِهَا كُتُبُ الْفِقْهِ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب الوفاء بالنذر، رقم (٦٦٩٢، ٦٦٩٣)، ومسلم: كتاب النذر، باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئاً، رقم (١٦٣٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة، رقم (٦٦٩٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الأصل الثاني^[١] :

مَعْرِفَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالْأَدِلَّةِ، وَهُوَ: الْإِسْتِسْلَامُ^[٢] لِلَّهِ بِالتَّوْحِيدِ^[٣] وَالْإِنْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ^[٤]، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشُّرْكِ وَأَهْلِهِ^[٥].....

[١] أي: مِنَ الْأَصُولِ الثَّلَاثَةِ: مَعْرِفَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالْأَدِلَّةِ، يَغْنِي: أَنْ يَعْرِفَ دِينَ الْإِسْلَامِ بِأَدِلَّتِهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

[٢] دِينُ الْإِسْلَامِ -وإن شئت فقل: الْإِسْلَامُ- هُوَ «الْإِسْتِسْلَامُ لِلَّهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالْإِنْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشُّرْكِ وَأَهْلِهِ» فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لِأُمُورٍ ثَلَاثَةٍ.

[٣] أي: بِأَنْ يَسْتَسْلِمَ الْعَبْدُ لِرَبِّهِ اسْتِسْلَامًا شَرْعِيًّا؛ وَذَلِكَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَإِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ، وَهَذَا الْإِسْلَامُ هُوَ الَّذِي يُحَمَّدُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ وَيَثَابُ عَلَيْهِ، أَمَّا الْإِسْتِسْلَامُ الْقَدَرِيُّ فَلَا ثَوَابَ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ لَا حِيلَةَ لِلْإِنْسَانِ فِيهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

[٤] وَذَلِكَ بِفِعْلِ أَوْامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ؛ لِأَنَّ الطَّاعَةَ طَاعَةٌ فِي الْأَمْرِ بِفِعْلِهِ وَطَاعَةٌ فِي النَّهْيِ بِتَرْكِهِ.

[٥] الْبَرَاءَةُ مِنَ الشُّرْكِ أي: أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْهُ، وَيَتَخَلَّى مِنْهُ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ الْبَرَاءَةَ مِنَ أَهْلِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [المتحنة: ٤].

وَهُوَ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ^[١]: الْإِسْلَامُ، وَالْإِيمَانُ، وَالْإِحْسَانُ.

وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ^[٢] فَأَرْكَانُ الْإِسْلَامِ خَمْسَةٌ^[٣]: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ^[٤]، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ.

[١] بَيَّنَّ الْمُؤَلَّفُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ، بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَهِيَ: الْإِسْلَامُ، وَالْإِيمَانُ، وَالْإِحْسَانُ.

[٢] دَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ جَاءَ جَبْرِيلُ يَسْأَلُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ وَبَيَّنَّ لَهُ ﷺ ذَلِكَ، وَقَالَ: «هَذَا جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»^(١).

[٣] دَلِيلُ ذَلِكَ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ»^(٢).

[٤] شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ رُكْنٌ وَاحِدٌ، وَإِنَّمَا كَانَتَا رُكْنًا وَاحِدًا مَعَ أَنَّهُمَا مِنْ شِقَيْنِ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَاتِ تَنْبِيْ عَلَى تَحْقِيقِهَا مَعًا، فَلَا تُقْبَلُ الْعِبَادَةُ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَهُوَ مَا تَتَّصِمُهُ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ وَهُوَ مَا تَتَّصِمُهُ شَهَادَةُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم، رقم (٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، رقم (١٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَرِيزُ الْحَكِيمُ﴾^[٢] [آل عمران: ١٨]، وَمَعْنَاهَا: لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ إِلَّا اللَّهُ «لَا إِلَهَ» نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ «إِلَّا اللَّهُ» مُثَبِّتًا الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مِلْكِهِ^[١].

[٢] فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ شَهَادَةُ اللَّهِ لِنَفْسِهِ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَشَهَادَةُ الْمَلَائِكَةِ، وَشَهَادَةُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِذَلِكَ، وَأَنَّهُ تَعَالَى قَائِمٌ بِالْقِسْطِ - أَيِ الْعَدْلِ - ثُمَّ قَرَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَرِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ حَيْثُ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ شُهَدَاءُ مَعَهُ وَمَعَ الْمَلَائِكَةِ، وَالْمُرَادُ بِهِمْ أُولُو الْعِلْمِ بِسُرْعَتِهِ، وَيَدْخُلُ فِيهِمْ دُخُولًا أَوَّلِيًّا رُسُلُهُ الْكَرَامُ.

وَهَذِهِ الشَّهَادَةُ أَعْظَمُ شَهَادَةٍ؛ لِعِظَمِ الشَّاهِدِ وَالْمَشْهُودِ بِهِ، فَالشَّاهِدُ هُوَ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ وَأُولُو الْعِلْمِ، وَالْمَشْهُودُ بِهِ تَوْحِيدُ اللَّهِ فِي أُلُوهِيَّتِهِ، وَتَقْرِيرُ ذَلِكَ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَرِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

[١] قَوْلُهُ: «وَمَعْنَاهَا» أَيِ: مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ: أَلَّا مَعْبُودَ بِحَقِّ إِلَّا اللَّهُ، فَشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَنْ يَعْتَرِفَ الْإِنْسَانُ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ بِأَنَّهُ لَا مَعْبُودَ حَقًّا إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ «إِلَهٌ» بِمَعْنَى مَالُوهُ، وَالتَّأَلُّهُ: التَّعَبُّدُ.

وَجُمْلَةُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) مُشْتَمِلَةٌ عَلَى نَفْيٍ وَإِثْبَاتٍ، أَمَّا النَّفْيُ فَهُوَ «لَا إِلَهَ» وَأَمَّا الْإِثْبَاتُ «إِلَّا اللَّهُ».

وَاللَّهُ لَفِظُ الْجَلَالَةِ بَدَلٌ مِنْ خَيْرِ (لَا) الْمَحْذُوفِ، وَالتَّقْدِيرُ «لَا إِلَهَ حَقًّا إِلَّا اللَّهُ».

وَبِتَقْدِيرِنَا الْخَبَرَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ (حَقٌّ) يَتَبَيَّنُ الْجَوَابُ عَنِ الْإِشْكَالِ التَّالِي، وَهُوَ: كَيْفَ يُقَالُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» مَعَ أَنَّ هُنَاكَ آلهَةً تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَقَدْ سَمَّاها اللَّهُ تَعَالَى آلهَةً، وَسَمَّاها عَابِدُوهَا آلهَةً، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١١٠] وَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ تُثْبِتَ الْأُلُوْهِيَّةَ لِغَيْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَالرُّسُلُ يَقُولُونَ لِأَقْوَامِهِمْ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]؟

وَالْجَوَابُ عَلَى هَذَا الْإِشْكَالِ يَتَبَيَّنُ بِتَقْدِيرِ الْخَبَرِ فِي «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فَنَقُولُ: هَذِهِ الْآلِهَةُ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ هِيَ آلهَةٌ، لَكِنَّهَا آلهَةٌ بَاطِلَةٌ، لَيْسَتْ آلهَةٌ حَقَّةً، وَلَيْسَ لَهَا مِنْ حَقِّ الْأُلُوْهِيَّةِ شَيْءٌ.

وَيَدُلُّ لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُوتُكَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وَيَدُلُّ لِذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ (١١) وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ ۚ (١٢) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (١٣) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (١٤) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣)﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِيَ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمِيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٤٠].

إِذَنْ: فَمَعْنَى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» لَا مَعْبُودَ حَقٌّ إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، فَأَمَّا الْمَعْبُودَاتُ سِوَاهُ فَإِنَّ أُلُوْهِيَّتَهَا الَّتِي يَزْعُمُهَا عَابِدُوهَا لَيْسَتْ حَقِيقِيَّةً، أَيْ: أُلُوْهِيَّةٌ بَاطِلَةٌ.

وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ^[١] لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ^[٢] مِمَّا تَعْبُدُونَ^[٣] إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي^[٤] فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ^[٥]﴾ وَجَعَلَهَا^[٦] كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيهِ^[٧] لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ^[٨] [الزخرف: ٢٦-٢٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ^[٩] يَا أَهْلَ الْكِتَابِ

[١] إِبْرَاهِيمُ هُوَ خَلِيلُ اللَّهِ، إِمَامُ الْحَنَفَاءِ، وَأَفْضَلُ الرُّسُلِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَبُوهُ آزَرُ.

[٢] ﴿بَرَاءٌ﴾ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ مِنَ الْبِرَاءَةِ، وَهِيَ أَبْلَغُ مِنْ بَرِيءٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ يُؤَافِي قَوْلَ: «لَا إِلَهَ».

[٣] خَلَقَنِي ابْتِدَاءً عَلَى الْفِطْرَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ يُؤَافِي قَوْلَهُ: «إِلَّا اللَّهُ» فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ كَمَا أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ.

وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] فَقِي هَذِهِ الْآيَةُ حَضَرَ الْخَلْقَ وَالْأَمْرَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَخَدَهُ، فَلَهُ الْخَلْقُ وَلَهُ الْأَمْرُ الْكَوْنِيُّ وَالشَّرْعِيُّ.

[٤] ﴿سَيَهْدِينِ﴾ سَيَهْدِينِي عَلَى الْحَقِّ وَيُوقِّفُنِي لَهُ.

[٥] ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أَيُّ: هَذِهِ الْكَلِمَةُ، وَهِيَ الْبِرَاءَةُ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَى اللَّهِ.

[٦] ﴿فِي عَقِيهِ﴾ فِي ذُرِّيَّتِهِ.

[٧] ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أَيُّ: إِلَيْهَا مِنَ الشُّرْكِ.

[٨] الْحِطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ لِمُنَاطَرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ^[١] سَوَّامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ^[٢] فَإِنْ تَوَلَّوْا^[٣] فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٤﴾ [آل عمران: ٦٤].

وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ^[٥] عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ^[٦] حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ^[٧].....

[١] ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ هَذِهِ الْكَلِمَةُ هِيَ «أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ» هِيَ مَعْنَى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وَمَعْنَى ﴿سَوَّامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أَنَّنَا نَحْنُ وَإِيَّاكُمْ سَوَاءٌ فِيهَا.

[٢] أَيْ: لَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِحَيْثُ يُعَظَّمُ كَمَا يُعَظَّمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَيُعْبَدُ كَمَا يُعْبَدُ اللَّهُ، وَيُجْعَلُ الْحُكْمُ لغيرِهِ.

[٣] ﴿إِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَعْرَضُوا عَمَّا دَعَوْهُمْ إِلَيْهِ.

[٤] أَيْ: فَاعْلِنُوا لَهُمْ وَأَشْهَدُوهُمْ أَنَّكُمْ مُسْلِمُونَ لِلَّهِ، بَرِئُونَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْعِنَادِ وَالتَّوَلَّى عَنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْعَظِيمَةِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

[٥] قَوْلُهُ: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيْ: مِنْ جَنَسِكُمْ، بَلْ هُوَ مِنْ بَيْنِكُمْ أَيْضًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

[٦] أَيْ: يُشَقُّ عَلَيْهِ مَا شَقَّ عَلَيْكُمْ.

[٧] أَيْ: عَلَى مَنْفَعَتِكُمْ وَدَفْعِ الضَّرِّ عَنْكُمْ.

بِالْمُؤْمِنِينَ رُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ [التوبة: ١٢٨].

وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصَدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ، وَأَنْ لَا يُعْبَدَ اللَّهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ ﴿٢﴾.

[١] أَي: ذُو رَأْفَةٍ وَرَحْمَةٍ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَخَصَّ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ ﷺ مَأْمُورٌ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْغُلَطَّةِ عَلَيْهِمْ.

وَهَذِهِ الْأَوْصَافُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وَالآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ جِدًّا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا.

[٢] مَعْنَى شَهَادَةِ «أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ» هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَالْإِيمَانُ بِالْقَلْبِ بِأَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْقُرَشِيَّ الْهَاشِمِيَّ رَسُولُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وَلَا عِبَادَةَ لِلَّهِ تَعَالَى إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وَمُقْتَضَى هَذِهِ الشَّهَادَةِ أَنْ تُصَدَّقَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا أَخْبَرَ، وَأَنْ تَمْتَثِلَ أَمْرُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَأَنْ تَجْتَنِبَ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ، وَأَنْ لَا تَعْبُدَ اللَّهَ إِلَّا بِمَا شَرَعَ.

وَمُقْتَضَى هَذِهِ الشَّهَادَةِ أَيْضًا أَنْ لَا تَعْتَقِدَ أَنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَقًّا فِي الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَضْرِيفِ الْكُؤْنِ، أَوْ حَقًّا فِي الْعِبَادَةِ، بَلْ هُوَ ﷺ عَبْدٌ لَا يُعْبَدُ، وَرَسُولٌ لَا يُكَذَّبُ، وَلَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَلَا لِغَيْرِهِ شَيْئًا مِنَ النَّفْعِ أَوْ الضَّرِّ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

وَدَلِيلُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ^[١] وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ^[٢].....

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠] فَهُوَ عَبْدٌ مَأْمُورٌ يَتَّبِعُ مَا أَمَرَ بِهِ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (١١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿[الجن: ٢١-٢٢] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وَبِهَذَا تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ لَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَا مَنْ دُونَهُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، وَأَنَّ الْعِبَادَةَ لَيْسَتْ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٣) لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿[الأنعام: ١٦٢-١٦٣] وَأَنَّ حَقَّهُ ﷺ أَنْ تُنَزِّلَهُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِيَّاهَا، وَهُوَ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

[١] أَيُّ أَنَّ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ مِنَ الدِّينِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البينة: ٥] وَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ شَامِلَةٌ لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ فِيهَا مُخْلِصًا لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، حَنِيفًا، مُتَّبِعًا لِشَرِيعَتِهِ.

[٢] هَذَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ؛ لِأَنَّ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَصَّ عَلَيْهِمَا؛ لِمَا لَهُمَا مِنَ الْأَهَمِّيَّةِ، فَالصَّلَاةُ عِبَادَةُ الْبَدَنِ، وَالزَّكَاةُ عِبَادَةُ الْمَالِ، وَهُمَا قَرِيبَتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

وَذَلِكَ ^[١] دِينَ الْقِيَمَةِ ﴿^[٢] [البينة: ٥].

وَدَلِيلُ الصِّيَامِ ^[٣] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ
كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ.....

[١] أَي: عِبَادَةُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ، وَإِقَامَةَ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ.

[٢] أَي: دِينَ الْمِلَّةِ الْقِيَمَةِ الَّتِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهَا؛ لِأَنَّهَا دِينُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَدِينُ اللَّهِ
مُسْتَقِيمٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ كَمَا تَضَمَّنَتْ ذِكْرَ الْعِبَادَةِ وَالصَّلَاةِ فَقَدْ تَضَمَّنَتْ حَقِيقَةَ
التَّوْحِيدِ، وَأَنَّهُ الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ مِنْ غَيْرِ مِيلٍ إِلَى الشَّرِكِ، فَمَنْ لَمْ يُخْلِصْ لِلَّهِ لَمْ
يَكُنْ مُوَحِّدًا، وَمَنْ جَعَلَ عِبَادَتَهُ لِغَيْرِ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ مُوَحِّدًا.

[٣] أَي: دَلِيلُ وَجُوبِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ
كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وَفِي قَوْلِهِ ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فَوَائِدُ:

أَوَّلًا: أَهَمِّيَّةُ الصِّيَامِ؛ حَيْثُ فَرَضَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى الْأُمَّمِ مِنْ قَبْلِنَا، وَهَذَا يَدُلُّ
عَلَى حُبِّهِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَهُ، وَأَنَّهُ لَا زِمَ لِكُلِّ أُمَّةٍ.

ثَانِيًا: التَّخْفِيفُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ حَيْثُ إِنَّمَا لَمْ تُكَلَّفْ وَحْدَهَا بِالصِّيَامِ الَّذِي قَدْ
يَكُونُ فِيهِ مَشَقَّةٌ عَلَى النُّفُوسِ وَالْأَبْدَانِ.

ثَالِثًا: الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَكْمَلَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ دِينَهَا؛ حَيْثُ أَكْمَلَ لَهَا الْفَضَائِلَ
الَّتِي سَبَقَتْ لِغَيْرِهَا.

لَمَلَكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾ [البقرة: ١٨٣].

وَدَلِيلُ الْحَجِّ ﴿٢﴾ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾ [آل عمران: ٩٧].

[١] بَيَّنَّ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ حِكْمَةَ الصِّيَامِ بِقَوْلِهِ ﴿لَمَلَكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿١﴾ أَي: تَتَّقُونَ اللَّهَ بِصِيَامِكُمْ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ خِصَالِ التَّقْوَى، وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ بِقَوْلِهِ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ» ^(١).

[٢] أَي: دَلِيلٌ وَجُوبُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ إِخ. وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَبِهَا كَانَتْ فَرِيضَةُ الْحَجِّ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ قَالَ: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلَا حَجَّ عَلَيْهِ.

[٣] فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ تَرْكَ الْحَجِّ مِمَّنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا يَكُونُ كُفْرًا.

وَلَكِنَّهُ كُفْرٌ لَا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ عَلَى قَوْلِ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ؛ لِقَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ: «كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الْأَعْمَالِ تَرَكُّهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلَاةِ» ^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور، رقم (١٩٠٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم (٢٦٢٢).

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ^[١]: الْإِيمَانُ^[٢] وَهُوَ بِضْعٌ^[٣] وَسَبْعُونَ شُعْبَةً^[٤]، فَأَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى^[٥] عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ^[٦] شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ

[١] أي: مِنْ مَرَاتِبِ الدِّينِ.

[٢] الْإِيمَانُ فِي اللُّغَةِ: التَّصْدِيقُ.

وَفِي الشَّرْعِ: «اعْتِقَادٌ بِالْقَلْبِ، وَقَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ، وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً».

[٣] الْبِضْعُ بِكَسْرِ الْبَاءِ: مِنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى التَّسْعَةِ.

[٤] الشُّعْبَةُ: الْجُزْءُ مِنَ الشَّيْءِ.

[٥] أي: إِزَالَةُ الْأَذَى، وَهُوَ مَا يُؤْذِي الْمَارَّةَ مِنْ أَحْجَارٍ، وَأَشْوَاكٍ، وَنُقَيَّاتٍ، وَقُمَامَةٍ، وَمَا لَهُ رَائِحَةٌ كَرِيهَةٌ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

[٦] الْحَيَاءُ: صِفَةٌ أَنْفِعَالِيَّةٌ تَحْدُثُ عِنْدَ الْحَجَلِ، وَتَحْجِزُ الْمَرْءَ عَنْ فِعْلِ مَا يُخَالِفُ الْمُرُوءَةَ.

وَالْجَمْعُ بَيْنَ مَا تَصَمَّنُهُ كَلَامُ الْمُؤَلِّفِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- مِنْ أَنَّ الْإِيمَانَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً وَأَنَّ الْإِيمَانَ أَرْكَانُهُ سِتَّةٌ أَنْ نَقُولَ: الْإِيمَانُ الَّذِي هُوَ الْعَقِيدَةُ أُصُولُهُ سِتَّةٌ، وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي حَدِيثِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَمَا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْإِيمَانِ فَقَالَ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(١).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَزْكَاهُ سِتَّةً: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ^[١]،

وَأَمَّا الْإِيمَانُ الَّذِي يَشْمَلُ الْأَعْمَالَ وَأَنْوَاعَهَا وَأَجْنَاسَهَا فَهُوَ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً؛
وَلِهَذَا سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الصَّلَاةَ إِيْمَانًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]
قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: يَعْنِي صَلَاتَكُمْ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؛ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرُوا
بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ يُصَلُّونَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ.
[١] الْإِيمَانُ بِاللَّهِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ:

الْأَوَّلُ: الْإِيمَانُ بِوُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ دَلَّ عَلَى وُجُودِهِ تَعَالَى: الْفِطْرَةُ، وَالْعَقْلُ،
وَالشَّرْعُ، وَالْحِسُّ.

١- أَمَّا دَلَالَةُ الْفِطْرَةِ عَلَى وُجُودِهِ: فَإِنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ قَدْ فُطِرَ عَلَى الْإِيمَانِ بِخَالِقِهِ
مِنْ غَيْرِ سَبَقٍ تَفْكِيرٍ أَوْ تَعْلِيمٍ، وَلَا يَنْصَرِفُ عَنْ مُقْتَضَى هَذِهِ الْفِطْرَةِ إِلَّا مَنْ طَرَأَ عَلَى
قَلْبِهِ مَا يَضُرُّهُ عَنْهَا؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ
يَهُودَانِهِ، أَوْ نَصْرَانِيَّةً، أَوْ مُجَسَّسَانِهِ»^(١).

٢- وَأَمَّا دَلَالَةُ الْعَقْلِ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى: فَلِأَنَّ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ سَابِقَهَا
وَلَا حَقَّهَا لِأَبَدٍ لَهَا مِنْ خَالِقٍ أَوْجَدَهَا؛ إِذْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوْجَدَ نَفْسُهَا بِنَفْسِهَا، وَلَا يُمَكِّنُ
أَنْ تُوْجَدَ صُدْفَةً.

لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوْجَدَ نَفْسُهَا بِنَفْسِهَا؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ لَا يَخْلُقُ نَفْسَهُ؛ لِأَنَّهُ قَبْلَ وُجُودِهِ
مَعْدُومٌ فَكَيْفَ يَكُونُ خَالِقًا؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، رقم (١٣٥٨)،
ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم (٢٦٥٨) من حديث أبي
هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوجَدَ صُدْفَةٌ؛ لِأَنَّ كُلَّ حَادِثٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ، وَلِأَنَّ وُجُودَهَا عَلَى هَذَا النَّظَامِ الْبَدِيعِ، وَالتَّنَاسُطِ الْمُتَالِفِ، وَالِازْتِبَاطِ الْمُتَلَحِّمِ بَيْنَ الْأَسْبَابِ وَمُسَبِّبَاتِهَا، وَبَيْنَ الْكَائِنَاتِ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ يَمْنَعُ مَنَعًا بَاتًّا أَنْ يَكُونَ وُجُودُهَا صُدْفَةً؛ إِذِ الْمَوْجُودُ صُدْفَةٌ لَيْسَ عَلَى نِظَامٍ فِي أَصْلٍ وَجُودِهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ مُتَتَظِمًا حَالَ بَقَائِهِ وَتَطَوُّرِهِ؟! وَتَطَوُّرُهُ؟!

وَإِذَا لَمْ يُمَكِّنْ أَنْ تُوجَدَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا، وَلَا أَنْ تُوجَدَ صُدْفَةٌ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ لَهَا مُوجِدٌ، وَهُوَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الدَّلِيلَ الْعَقْلِيَّ وَالْبُرْهَانَ الْقَطْعِيَّ فِي سُورَةِ الطُّورِ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] يَعْنِي أَنَّهُمْ لَمْ يُخْلَقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ، وَلَا هُمْ الَّذِينَ خَلَقُوا أَنْفُسَهُمْ؛ فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ خَالِقُهُمْ هُوَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَلِهَذَا لَمَّا سَمِعَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ سُورَةَ الطُّورِ فَبَلَغَ هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصْطَبِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧] وَكَانَ جُبَيْرٌ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكًا - قَالَ: «كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ، وَذَلِكَ أَوَّلَ مَا وَقَرَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مُفْرَقًا^(١).

وَلَنَضْرِبَ مَثَلًا يَوْضَحُ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَوْ حَدَّثَكَ شَخْصٌ عَنْ قَصْرِ مُشِيدٍ، أَحَاطَتْ بِهِ الْحَدَائِقُ، وَجَرَتْ بَيْنَهَا الْأَنْهَارُ، وَمُلِئَ بِالْفُرُشِ وَالْأَسِرَّةِ، وَزِينِ بَأَنْوَاعِ الزَّيْنَةِ مِنْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، رقم (٤٠٢٣)، وكتاب تفسير القرآن، باب تفسير سورة الطور، رقم (٤٨٥٤).

مُقَوِّمَاتِهِ وَمُكَمَّلَاتِهِ، وَقَالَ لَكَ: إِنَّ هَذَا الْقَصْرَ وَمَا فِيهِ مِنْ كَمَالٍ قَدْ أُوْجِدَ نَفْسُهُ، أَوْ وُجِدَ هَكَذَا صُدْفَةٌ بِدُونِ مُوْجِدٍ -لَبَادَرَتْ إِلَى إِنْكَارِ ذَلِكَ وَتَكْذِيبِهِ، وَعَدَدَتْ حَدِيثَهُ سَفَهًا مِنَ الْقَوْلِ، أَفَيَجُوزُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكَوْنُ الْوَاسِعُ بِأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ، وَأَفْلَاكِهِ وَأَحْوَالِهِ، وَنِظَامِهِ الْبَدِيعِ الْبَاهِرِ، قَدْ أُوْجِدَ نَفْسُهُ، أَوْ وُجِدَ صُدْفَةٌ بِدُونِ مُوْجِدٍ!!؟

٣- وَأَمَّا دَلَالَةُ الشَّرْعِ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى: فَلِأَنَّ الْكُتُبَ السَّامِيَّةَ كُلَّهَا تَنْطِقُ بِذَلِكَ، وَمَا جَاءَتْ بِهِ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِمَصَالِحِ الْخَلْقِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا مِنْ رَبِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ بِمَصَالِحِ خَلْقِهِ، وَمَا جَاءَتْ بِهِ مِنَ الْأَخْبَارِ الْكُونِيَّةِ الَّتِي شَهِدَ الْوَاقِعُ بِصِدْقِهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا مِنْ رَبِّ قَادِرٍ عَلَى إِيجَادِ مَا أَخْبَرَ بِهِ.

٤- وَأَمَّا أدِلَّةُ الْحِسِّ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ فَمِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّنَا نَسْمَعُ وَنُشَاهِدُ مِنْ إِجَابَةِ الدَّاعِينَ، وَغَوِثِ الْمَكْرُوبِينَ - مَا يَدُلُّ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى وُجُودِهِ تَعَالَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء: ٧٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا دَخَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْكَ الْمَالُ، وَجَاعَ الْعِيَالُ، فَادْعُ اللَّهَ لَنَا. فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَدَعَا، فَثَارَ السَّحَابُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، فَلَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ الْمَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لَحْيَتِهِ. وَفِي الْجُمُعَةِ الثَّانِيَةِ قَامَ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ أَوْ غَيْرُهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَهْدِمُ الْبِنَاءَ وَغَرَقَ الْمَالُ، فَادْعُ اللَّهَ لَنَا. فَرَفَعَ يَدَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا».

فَمَا يُشِيرُ إِلَى نَاحِيَةٍ إِلَّا أَنْفَرَجَتْ ^(١).

وَمَا زَالَتْ إِجَابَةُ الدَّاعِينَ أَمْرًا مَشْهُودًا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا لِمَنْ صَدَقَ اللُّجُوءَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَآتَى بِشَرَائِطِ الإِجَابَةِ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ -الَّتِي تُسَمَّى الْمُعْجَزَاتِ- وَيُشَاهِدُهَا النَّاسُ، أَوْ يَسْمَعُونَ بِهَا - بُرْهَانٌ قَاطِعٌ عَلَى وُجُودِ مُرْسِلِهِمْ، وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى؛ لِأَنَّهَا أُمُورٌ خَارِجَةٌ عَنْ نِطَاقِ الْبَشَرِ، يُجَرِّبُهَا اللَّهُ تَعَالَى تَأْيِيدًا لِرُسُلِهِ وَنَصْرًا لَهُمْ.

مِثَالُ ذَلِكَ: آيَةُ مُوسَى ﷺ حِينَ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاهُ الْبَحْرَ، فَضْرَبَهُ، فَانْفَلَقَ اثْنِي عَشَرَ طَرِيقًا يَابِسًا، وَالْمَاءُ بَيْنَهَا كَالْجِبَالِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].

وَمِثَالُ ثَانٍ: آيَةُ عِيسَى ﷺ، حَيْثُ كَانَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ قُبُورِهِمْ بِإِذْنِ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] وَقَالَ: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

وَمِثَالُ ثَالِثٍ: لِمُحَمَّدٍ ﷺ حِينَ طَلَبَتْ مِنْهُ قُرَيْشُ آيَةً، فَأَشَارَ إِلَى الْقَمَرِ، فَانْفَلَقَ فِرْقَتَيْنِ فَرَأَاهُ النَّاسُ، وَفِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿اقتربت الساعةُ وَانشقَّ القمرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١-٢].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب تحويل الرداء في الاستسقاء، رقم (١٠١٣)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب رفع اليدين بالدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَهَذِهِ الْآيَاتُ الْمَحْسُوسَةُ الَّتِي يُجَرِّبُهَا اللَّهُ تَعَالَى تَأْيِيدًا لِرُسُلِهِ، وَنَصْرًا لَهُمْ - تَدُلُّ دَلَالَةً قَطْعِيَّةً عَلَى وُجُودِهِ تَعَالَى.

الثَّانِي: الْإِيْبَانُ بِرُبُوبِيَّتِهِ:

أَيُّ: بِأَنَّهُ وَحْدَهُ الرَّبُّ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا مُعِينٌ.

وَالرَّبُّ: مَنْ لَهُ الْخَلْقُ وَالْمَلِكُ وَالْأَمْرُ، فَلَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا مَالِكَ إِلَّا هُوَ، وَلَا أَمْرَ إِلَّا لَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وَقَالَ: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

وَلَمْ يُعْلَمْ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ أَنْكَرَ رُبُوبِيَّةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُكَابِرًا غَيْرَ مُعْتَقِدٍ بِمَا يَقُولُ، كَمَا حَصَلَ مِنْ فِرْعَوْنَ حِينَ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] وَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [الفصص: ٣٨] لَكِنْ ذَلِكَ لَيْسَ عَنْ عَقِيدَةٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَفْتِنْتَهَا أَنْفُسُكُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وَقَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ فِيمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وَلِهَذَا كَانَ الْمَشْرِكُونَ يَقْرَءُونَ بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، مَعَ إِشْرَاقِهِمْ بِهِ فِي الْأَلُوْهِيَّةِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِوُكَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجَبِّرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِلَّا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩-٨٤). [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ
الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩].

وَقَالَ: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].
وَأَمَرَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ شَامِلٌ لِلْأَمْرِ الْكَوْنِيِّ وَالشَّرْعِيِّ، فَكَمَا أَنَّهُ مُدَبِّرُ الْكَوْنِ الْقَاضِي
فِيهِ بِمَا يُرِيدُ حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ، فَهُوَ كَذَلِكَ الْحَاكِمُ فِيهِ بِشَرْعِ الْعِبَادَاتِ، وَأَحْكَامِ
الْمُعَامَلَاتِ، حَسَبًا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ، فَمَنِ اتَّخَذَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى مُشْرَعًا فِي الْعِبَادَاتِ أَوْ حَاكِمًا
فِي الْمُعَامَلَاتِ فَقَدْ أَشْرَكَ بِهِ وَلَمْ يُحَقِّقِ الْإِيمَانَ.

الثالث: الإِيمَانُ بِاللَّوْهِيَّةِ:

أَيُّ: «بِأَنَّهُ وَخَدَهُ إِلَهُ الْحَقُّ لَا شَرِيكَ لَهُ» وَ(الْإِلَهَ) بِمَعْنَى الْمَالُوهِ، أَيِ: (الْمَعْبُودِ)
حُبًّا وَتَعْظِيمًا:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ كُذِّبَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وَكُلُّ مَا اتَّخَذَ إِلَهًا مَعَ اللَّهِ يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ فَأَلُوهُيَّتُهُ بَاطِلَةٌ:
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ
الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وَتَسْمِيَّتُهَا آلَهَةً لَا يُعْطِيهَا حَقَّ الْأَلُوْهِيَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي اللَّاتِ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ:
﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣].

وَقَالَ عَنْ هُودٍ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿اتَّجِدُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف: ٧١].

وَقَالَ عَنْ يُوسُفَ أَنَّهُ قَالَ لِصَاحِبِي السِّجْنِ: ﴿أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ
الْوَحْدُ الْقَهَّارُ ❸٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠].

وَهَذَا كَانَتْ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُونَ لِأَقْوَامِهِمْ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وَلَكِنْ أَبِي ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ، وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً، يَعْبُدُونَهُمْ
مَعَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيَسْتَنْصِرُونَ بِهِمْ، وَيَسْتَغِيثُونَ.

وَقَدْ أَبْطَلَ اللَّهُ تَعَالَى اتِّخَاذَ الْمُشْرِكِينَ هَذِهِ الْآلِهَةَ بِزُهَاتَيْنِ عَقْلِيَّتَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ لَيْسَ فِي هَذِهِ الْآلِهَةِ الَّتِي اتَّخَذُوهَا شَيْءٌ مِنْ خَصَائِصِ الْأُلُوهِيَّةِ، فَهِيَ
مَخْلُوقَةٌ لَا تَخْلُقُ، وَلَا تَجْلِبُ نَفْعًا لِعَابِدِيهَا، وَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضَرَرًا، وَلَا تَمْلِكُ لَهُمْ حَيَاةً
وَلَا مَوْتًا، وَلَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا مِنَ السَّمَاوَاتِ، وَلَا يُشَارِكُونَ فِيهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا
يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ❹٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ
الْشَفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ.﴾ [سبا: ٢٢-٢٣].

وَقَالَ: ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ❹٣﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ
يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢].

وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ حَالٌ تِلْكَ الْإِلَهَةِ، فَإِنَّ اتِّخَاذَهَا إِلَهَةً مِنْ أَسْفَهِ السَّفَهِ، وَأَبْطَلِ الْبَاطِلِ.

الثَّانِي: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُقَرِّونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَحْدَهُ الرَّبُّ الْحَاقُّ، الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يُوحِّدُوهُ بِالْأُلُوهِيَّةِ، كَمَا وَحَّدُوهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

وَقَالَ: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزحرف: ٨٧].

وَقَالَ: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

الرَّابِعُ: الْإِيمَانُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ:

أَيُّ: إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ، أَوْ سُنَّةَ رَسُولِهِ ﷺ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ بِهِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ، وَلَا تَعْطِيلٍ، وَلَا تَكْثِيفٍ، وَلَا تَمَثِيلٍ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وَقَالَ: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧].

وَقَالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

وَقَدْ ضَلَّ فِي هَذَا الْأَمْرِ طَائِفَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: (الْمُعْطَلَةُ) الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ، أَوْ بَعْضَهَا، زَاعِمِينَ أَنَّ
إِبْتَاتَهَا يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ، أَيْ: تَشْبِيهَ اللَّهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ.

وَهَذَا الزَّعْمُ بَاطِلٌ لَوْجُوهٍ، مِنْهَا:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ لَوَازِمَ بَاطِلَةٍ كَالْتِنَاقُضِ فِي كَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ
تَعَالَى أَثَبَّتَ لِنَفْسِهِ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ، وَنَفَى أَنْ يَكُونَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَلَوْ كَانَ إِبْتَاتُهَا
يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ لِلزَّمِ التَّنَاقُضِ فِي كَلَامِ اللَّهِ، وَتَكْذِيبُ بَعْضِهِ بَعْضًا.

الثَّانِي: أَنَّهُ لَا يَلْزِمُ مِنْ اتِّفَاقِ الشَّيْئَيْنِ فِي اسْمٍ أَوْ صِفَةٍ أَنْ يَكُونَا مُتَمَاثِلَيْنِ، فَأَنْتَ تَرَى
الشَّخْصَيْنِ يَتَّفَقَانِ فِي أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا إِنْسَانٌ سَمِيعٌ، بَصِيرٌ، مُتَكَلِّمٌ، وَلَا يَلْزِمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ
يَتَمَاثَلَا فِي الْمَعَانِي الْإِنْسَانِيَّةِ، وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَالْكَلَامِ، وَتَرَى الْحَيَوَانَاتِ لَهَا أَيْدٍ وَأَرْجُلٌ
وَأَعْيُنٌ، وَلَا يَلْزِمُ مِنْ اتِّفَاقِهَا هَذَا أَنْ تَكُونَ أَيْدِيهَا وَأَرْجُلُهَا وَأَعْيُنُهَا مُتَمَاثِلَةً.

فَإِذَا ظَهَرَ التَّبَاطُحُ بَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ فِيمَا تَتَّفَقُ فِيهِ مِنْ أَسْمَاءٍ أَوْ صِفَاتٍ، فَالْتَّبَاطُحُ
بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ أَبَيْنُ وَأَعْظَمُ.

الطَّائِفَةُ الثَّانِيَّةُ: (الْمُشَبَّهَةُ) الَّذِينَ أَثَبَّتُوا الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ مَعَ تَشْبِيهِ اللَّهِ تَعَالَى
بِخَلْقِهِ، زَاعِمِينَ أَنَّ هَذَا مُفْتَضًى دَلَالَةِ النُّصُوصِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخَاطَبُ الْعِبَادَ بِمَا
يَفْهَمُونَ.

وَهَذَا الزَّعْمُ بَاطِلٌ لَوْجُوهٍ، مِنْهَا:

الْأَوَّلُ: أَنَّ مُشَابَهَةَ اللَّهِ تَعَالَى لِحَلْقِهِ أَمْرٌ بَاطِلٌ، يُبْطِلُهُ الْعَقْلُ وَالشَّرْعُ، وَلَا يُمَكِّنُ

أَنْ يَكُونَ مُقْتَضَى نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَمْرًا بَاطِلًا.

الثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَاطَبَ الْعِبَادَ بِمَا يَفْهَمُونَ مِنْ حَيْثُ أَصْلِ الْمَعْنَى، أَمَّا الْحَقِيقَةُ وَالْكُنْهَ الَّذِي عَلَيْهِ ذَلِكَ الْمَعْنَى فَهُوَ بِمَا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ فِيَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ.

فَإِذَا أَثَبَتَ اللَّهُ لِنَفْسِهِ أَنَّهُ سَمِيعٌ، فَإِنَّ السَّمْعَ مَعْلُومٌ مِنْ حَيْثُ أَصْلِ الْمَعْنَى (وَهُوَ إِدْرَاكُ الْأَصْوَاتِ) لَكِنْ حَقِيقَةُ ذَلِكَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى سَمْعِ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرُ مَعْلُومَةٍ؛ لِأَنَّ حَقِيقَةَ السَّمْعِ تَبَايُنُ حَتَّى فِي الْمَخْلُوقَاتِ، فَالْتَّبَايُنُ فِيهَا بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ أَبَيْنُ وَأَعْظَمُ.

وَإِذَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ فَإِنَّ الْإِسْتِوَاءَ مِنْ حَيْثُ أَصْلِ الْمَعْنَى مَعْلُومٌ، لَكِنْ حَقِيقَةُ الْإِسْتِوَاءِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهِ غَيْرُ مَعْلُومَةٍ بِالنَّسْبَةِ إِلَى اسْتِوَاءِ اللَّهِ عَلَى عَرْشِهِ؛ لِأَنَّ حَقِيقَةَ الْإِسْتِوَاءِ تَبَايُنُ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِ، فَلَيْسَ الْإِسْتِوَاءُ عَلَى كُرْسِيِّ مُسْتَقَرٍّ كَالْإِسْتِوَاءِ عَلَى رَحْلِ بَعِيرٍ صَغْبٍ نَفُورٍ، فَإِذَا تَبَايَنَتْ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِ، فَالْتَّبَايُنُ فِيهَا بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ أَبَيْنُ وَأَعْظَمُ.

وَالْإِيْمَانُ بِاللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا وَصَفْنَا يُثْمِرُ لِلْمُؤْمِنِينَ ثَمَرَاتٍ جَلِيلَةً، مِنْهَا:

الْأُولَى: تَحْقِيقُ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى، بِحَيْثُ لَا يَتَعَلَّقُ بِغَيْرِهِ رَجَاءٌ وَلَا خَوْفٌ، وَلَا يَعْبُدُ غَيْرُهُ.

الثَّانِيَةُ: كَمَالُ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَعْظِيمُهُ بِمُقْتَضَى أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا.

الثَّالِثَةُ: تَحْقِيقُ عِبَادَتِهِ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ، وَاجْتِنَابِ مَا نَهَى عَنْهُ.



وَمَلَائِكَتِهِ^[١]،

[١] الْمَلَائِكَةُ: عَالَمٌ غَيْبِيٌّ، مَخْلُوقُونَ، عَابِدُونَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ شَيْءٌ، خَلَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ نُورٍ، وَمَنْحَهُمُ الْإِنْفِيَادَ التَّامَّ لِأَمْرِهِ، وَالْقُوَّةَ عَلَى تَنْفِيذِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿[الأنبياء: ١٩-٢٠].

وَهُمْ عَدَدٌ كَثِيرٌ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِصَّةِ الْمِعْرَاجِ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رُفِعَ لَهُ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فِي السَّمَاءِ، يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ»^(١).

وَالْإِيمَانُ بِالْمَلَائِكَةِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ:

الأوَّل: الإِيمَانُ بِوُجُودِهِمْ.

الثَّانِي: الإِيمَانُ بِمَنْ عَلِمْنَا اسْمَهُ مِنْهُمْ بِاسْمِهِ (كَجِبْرِيلَ) وَمَنْ لَمْ نَعْلَمْ اسْمَهُ نُؤْمِنُ بِهِمْ إجمالاً.

الثَّالِث: الإِيمَانُ بِمَا عَلِمْنَا مِنْ صِفَاتِهِمْ، كَصِفَةِ (جِبْرِيلَ) «فَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ رَأَاهُ عَلَى صِفَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، وَلَهُ سِتُّ مِثَّةٍ جَنَاحٍ»^(٢) قَدْ سَدَّ الْأَفُقَ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسماء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، رقم (١٦٢)، من حديث مالك بن صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٢٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في ذكر سكرة المنتهى، رقم (١٧٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٢٣٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾، رقم (١٧٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَقَدْ يَتَحَوَّلُ الْمَلَكُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى هَيْئَةٍ رَجُلٍ، كَمَا حَصَلَ (لِجَبْرِيلَ) حِينَ أَرْسَلَهُ تَعَالَى إِلَى مَرْيَمَ، فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا، وَحِينَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ، جَاءَهُ بِصِفَةِ رَجُلٍ شَدِيدٍ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدِ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَالْإِيمَانِ، وَالْإِحْسَانِ، وَالسَّاعَةِ، وَأَمَارَاتِهَا، فَأَجَابَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَأَنْطَلَقَ. ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَلُوطٍ، كَانُوا فِي صُورَةِ رَجَالٍ.

الرَّابِعُ: الْإِيمَانُ بِمَا عَلِمْنَا مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي يَقُومُونَ بِهَا بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، كَتَسْبِيحِهِ، وَالتَّعَبُّدُ لَهُ لَيْلًا وَنَهَارًا بِدُونِ مَلِكٍ وَلَا فَتْوَرٍ. وَقَدْ يَكُونُ لِبَعْضِهِمْ أَعْمَالٌ خَاصَّةٌ:

مِثْلُ: جِبْرِيلُ الْأَمِينِ عَلَى وَحْيِ اللَّهِ تَعَالَى، يُرْسِلُهُ اللَّهُ بِهِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ.

وَمِثْلُ: مِيكَائِيلَ الْمُوَكَّلِ بِالْقَطْرِ، أَيْ بِالْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ.

وَمِثْلُ: إِسْرَافِيلَ الْمُوَكَّلِ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ وَبَعَثِ الْخَلْقِ.

وَمِثْلُ: مَلَكِ الْمَوْتِ الْمُوَكَّلِ بِقَبْضِ الْأَرْوَاحِ عِنْدَ الْمَوْتِ.

وَمِثْلُ: مَالِكِ الْمُوَكَّلِ بِالنَّارِ، وَهُوَ خَازِنُ النَّارِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَمِثْلُ: الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِالْأَجَنَّةِ فِي الْأَرْحَامِ، إِذَا تَمَّ لِلإِنْسَانِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا وَأَمَرَهُ بِكَتَبِ: رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٍّ أَمْ سَعِيدٍ.

وَمِثْلُ: الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِحِفْظِ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ وَكِتَابَتِهَا، لِكُلِّ شَخْصٍ مَلَكَانِ، أَحَدُهُمَا عَنِ الْيَمِينِ، وَالْآخَرُ عَنِ الشَّمَالِ.

وَمِثْلُ: الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِسُؤَالِ الْمَيِّتِ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ يَأْتِيهِ مَلَكَانِ يَسْأَلَانِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَدِينِهِ، وَنَبِيِّهِ.

وَالْإِيمَانُ بِالْمَلَائِكَةِ يُثْمِرُ ثَمَرَاتٍ جَلِيلَةً، مِنْهَا:

الْأُولَى: الْعِلْمُ بِعَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقُوَّتِهِ، وَسُلْطَانِهِ، فَإِنَّ عَظَمَةَ الْمَخْلُوقِ مِنْ عَظَمَةِ الْخَالِقِ.

الثَّانِيَةُ: شُكْرُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِنَايَتِهِ بِبَنِي آدَمَ؛ حَيْثُ وَكَّلَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةِ مَنْ يَقُومُ بِحِفْظِهِمْ، وَكِتَابَةِ أَعْمَالِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِهِمْ.

الثَّالِثَةُ: حُبُّ الْمَلَائِكَةِ عَلَى مَا قَامُوا بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَدْ أَنْكَرَ قَوْمٌ مِنَ الزَّائِغِينَ كَوْنَ الْمَلَائِكَةِ أَجْسَامًا، وَقَالُوا: إِنَّهُمْ عِبَارَةٌ عَنْ قُوَى الْخَيْرِ الْكَامِنَةِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ، وَهَذَا تَكْذِيبٌ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَ

مَنْثَى وَتِلْكَ وَرُبَعٌ﴾ [فاطر: ١].

وَقَالَ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وَقَالَ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وَقَالَ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣].

وَقَالَ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٣٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَىٰ جِبْرِيلُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»^(١).

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ الْمَلَائِكَةُ يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَلِأَوَّلٍ، فَإِذَا جَلَسَ الْإِمَامُ طَوَّأُوا الصُّحُفَ وَجَاءُوا يَسْتَمِعُونَ الدُّكْرَ»^(٢).

وَهَذِهِ النُّصُوصُ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَجْسَامٌ لَا قُوَى مَعْنَوِيَّةٌ، كَمَا قَالَ الزَّائِعُونَ، وَعَلَىٰ مُقْتَضَىٰ هَذِهِ النُّصُوصِ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٩)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حبه لعباده، رقم (٢٦٣٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢١١)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب فضل التهجير يوم الجمعة، رقم (٨٥٠).

وَكُتِبَ^[١]،

[١] الكُتُبُ: جَمْعُ (كِتَابٍ) بِمَعْنَى (مَكْتُوبٍ).

وَالْمُرَادُ بِهَا هُنَا: الْكُتُبُ الَّتِي أَنْزَلَهَا تَعَالَى عَلَى رُسُلِهِ رَحْمَةً لِلخَلْقِ، وَهَدَايَةً لَهُمْ؛ لِيَصْلُوا بِهَا إِلَى سَعَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَالْإِيمَانُ بِالْكِتَابِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ:

الْأَوَّلُ: الْإِيمَانُ بِأَنَّ نَزُولَهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حَقًّا.

الثَّانِي: الْإِيمَانُ بِمَا عَلَّمْنَا اسْمَهُ مِنْهَا بِاسْمِهِ، كَالْقُرْآنِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالتَّوْرَةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى ﷺ، وَالْإِنْجِيلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى عِيسَى ﷺ، وَالزَّبُورِ الَّذِي أُوتِيَهُ دَاوُدَ ﷺ، وَأَمَّا مَا لَمْ نَعْلَمْ اسْمَهُ فَتُؤْمَنُ بِهِ إِجْمَالًا.

الثَّالِثُ: تَصْدِيقُ مَا صَحَّ مِنْ أَخْبَارِهَا، كَأَخْبَارِ الْقُرْآنِ، وَأَخْبَارِ مَا لَمْ يُدَلَّ أَوْ يُحَرَّفَ مِنَ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ.

الرَّابِعُ: الْعَمَلُ بِأَحْكَامِ مَا لَمْ يُنْسَخْ مِنْهَا، وَالرِّضَا وَالتَّسْلِيمُ بِهِ، سَوَاءً فَهِمْنَا حِكْمَتَهُ أَمْ لَمْ نَفْهَمْهَا، وَجَمِيعُ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ مَنْسُوخَةٌ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] أَي: (حَاكِمًا عَلَيْهِ)، وَعَلَى هَذَا فَلَا يَجُوزُ الْعَمَلُ بِأَيِّ حُكْمٍ مِنْ أَحْكَامِ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ إِلَّا مَا صَحَّ مِنْهَا وَأَقْرَهُ الْقُرْآنُ.

وَالْإِيمَانُ بِالْكِتَابِ يُثْمِرُ ثَمَرَاتٍ جَلِيلَةً، مِنْهَا:

الْأُولَى: الْعِلْمُ بِعِنَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ؛ حَيْثُ أَنْزَلَ لِكُلِّ قَوْمٍ كِتَابًا يَهْدِيهِمْ بِهِ.

وَرُسُلِهِ^[١]،

الثَّانِيَةُ: الْعِلْمُ بِحِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي شَرْعِهِ؛ حَيْثُ شَرَعَ لِكُلِّ قَوْمٍ مَا يُنَاسِبُ
أَحْوَالَهُمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ [المائدة: ٤٨].

[١] الرُّسُلُ: جَمْعُ (رَسُولٍ) بِمَعْنَى (مُرْسَلٍ) أَيْ (مُبْعُوثٍ) بِإِبْلَاحِ شَيْءٍ.

وَالْمُرَادُ هُنَا: مَنْ أَوْحِيَ إِلَيْهِ مِنَ الْبَشَرِ بِشَرْعٍ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ.

وَأَوَّلُ الرُّسُلِ نُوحٌ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا
أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣].

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ أَنَّ النَّبِيَّ
ﷺ ذَكَرَ «أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ إِلَى آدَمَ لِيَسْفَعَ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُ إِلَيْهِمْ، وَيَقُولُ: ااتُوا نُوحًا، أَوَّلَ
رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ» وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ^(١).

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ
اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وَلَمْ تَحُلْ أُمَّةٌ مِّن رُّسُولٍ يَبْعَثُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِشَرِيعَةٍ مُّسْتَقِلَّةٍ إِلَى قَوْمِهِ، أَوْ نَبِيٍّ يُوحِي
إِلَيْهِ بِشَرِيعَةٍ مِّن قَبْلِهِ لِيُجَدِّدَهَا:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، رقم (٤٤٧٦)،
ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤].

وَالرُّسُلُ بَشَرٌ مَخْلُوقُونَ، لَيْسَ لَهُمْ مِنْ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ شَيْءٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ وَأَعْظَمُهُمْ جَاهًا عِنْدَ اللَّهِ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْفَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (٣٨) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١-٢٢].

وَتَلَحُّقُهُمْ خَصَائِصُ الْبَشَرِيَّةِ مِنَ الْمَرَضِ، وَالْمَوْتِ، وَالْحَاجَةِ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي وَصْفِهِ لِرَبِّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ (٧٦) وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُبَسِّئُنِي ثُمَّ يُجْبِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩-٨١].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنْسَى كَمَا تَنْسُونَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي»^(١).

وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعُبُودِيَّةِ لَهُ فِي أَعْلَى مَقَامَاتِهِمْ، وَفِي سِيَاقِ الشَّاءِ عَلَيْهِمْ:

فَقَالَ تَعَالَى فِي نُوحٍ ﷺ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم (٤٠١)، ومسلم: كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٢)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾
[الفرقان: ١].

وَقَالَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ: ﴿وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۖ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ ۖ ﴿٤٦﴾
وَأَنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥-٤٧].

وَقَالَ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ﷺ: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي
إِسْرَءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

وَالِإِيمَانُ بِالرُّسُلِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةً أُمُورًا:

الأول: الإِيمَانُ بِأَنَّ رِسَالَتَهُمْ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ كَفَرَ بِرِسَالَةٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فَقَدْ
كَفَرَ بِالْجَمِيعِ. كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] فَجَعَلَهُمُ اللَّهُ
مُكَذِّبِينَ لِجَمِيعِ الرُّسُلِ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَسُولٌ غَيْرُهُ حِينَ كَذَّبُوهُ، وَعَلَى هَذَا فَالْنَّصَارَى
الَّذِينَ كَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ وَلَمْ يَتَّبِعُوهُ هُمْ مُكَذِّبُونَ لِلْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ، غَيْرُ مُتَّبِعِينَ لَهُ
أَيْضًا، لَا سِيَّما وَأَنَّهُ قَدْ بَشَّرَهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَا مَعْنَى لِبِشَارَتِهِمْ بِهِ إِلَّا أَنَّهُ رَسُولٌ
إِلَيْهِمْ، يُنْقِذُهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

الثاني: الإِيمَانُ بِمَنْ عَلِمْنَا اسْمَهُ مِنْهُمْ بِاسْمِهِ، مِثْلُ: مُحَمَّدٍ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَى،
وعِيسَى، وَنُوحٍ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهَؤُلَاءِ الْخَمْسَةُ هُمْ أُولُو الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ.
وَقَدْ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَوَاضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِإِذْ
أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

وَفِي سُورَةِ الشُّورَى فِي قَوْلِهِ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وَأَمَّا مَنْ لَمْ نَعْلَمْ اسْمَهُ مِنْهُمْ فَتُؤْمِنُ بِهِ إِجْمَالًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

الثالث: تَصَدِّقُ مَا صَحَّ عَنْهُمْ مِنْ أَخْبَارِهِمْ.

الرابع: الْعَمَلُ بِشَرِيعَةٍ مَنْ أُرْسِلَ إِلَيْنَا مِنْهُمْ، وَهُوَ خَاتَمُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، الْمُرْسَلُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وَلِلْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ ثَمَرَاتٌ جَلِيلَةٌ، مِنْهَا:

الأولى: الْعِلْمُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ؛ حَيْثُ أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلُ؛ لِيَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُيَسِّنُوا لَهُمْ كَيْفَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ الْبَشَرِيَّ لَا يَسْتَقِلُّ بِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ.

الثانية: شُكْرُهُ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النُّعْمَةِ الْكُبْرَى.

الثالثة: حُبُّهُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَتَعْظِيمُهُمْ، وَالشَّاءُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَلِيقُ بِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ رُسُلُ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا تَنْهَمُ قَامُوا بِعِبَادَتِهِ، وَتَبْلِغُ رِسَالَتِهِ، وَالنُّصْحَ لِعِبَادِهِ.

وَقَدْ كَذَّبَ الْمُعَانِدُونَ رُسُلَهُمْ، زَاعِمِينَ أَنَّ رُسُلَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَكُونُونَ مِنَ الْبَشَرِ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الزَّعَمَ وَأَبْطَلَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ^[١]،

إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَشْعُرُ
مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٥].

فَأَبْطَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الزَّعَمَ بِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ بَشَرًا؛ لِأَنَّهُ مُرْسَلٌ إِلَى
أَهْلِ الْأَرْضِ، وَهُمْ بَشَرٌ، وَلَوْ كَانَ أَهْلُ الْأَرْضِ مَلَائِكَةً لَنَزَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ
مَلَكًا رَسُولًا؛ لِيَكُونَ مِثْلَهُمْ، وَهَكَذَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْمَكْذِبِينَ لِلرُّسُلِ أَنَّهُمْ قَالُوا:
﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَنْ مَا كَانَتِ آبَاؤُنَا فَاتُّونَا بِسُلْطَانٍ
مُبِينٍ﴾ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ
مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿١١﴾ [إبراهيم: ١٠-١١].

[١] الْيَوْمِ الْآخِرُ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي يُبْعَثُ النَّاسُ فِيهِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ،
وَسُمِّيَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَوْمَ بَعْدَهُ؛ حَيْثُ يَسْتَقَرُّ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مَنَازِلِهِمْ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي
مَنَازِلِهِمْ.

وَالْإِبَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ:

الأول: الْإِيمَانُ بِالْبَعْثِ، وَهُوَ إِحْيَاءُ الْمَوْتَى حِينَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ النَّفْخَةُ الثَّانِيَّةُ،
فَيَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، خُفَاءَ غَيْرِ مُتَعَلِّينَ، عُرَاءَ غَيْرِ مُسْتَتَرِينَ، غُرْلًا غَيْرِ مُحْتَبَتِينَ،
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾
[الأنبياء: ١٠٤].

وَالْبَعْثُ: حَقٌّ ثَابِتٌ، دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ [المؤمنون: ١٥-١٦].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يُخْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُفَاءَ غُرْلًا» ^(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى ثُبُوتِهِ، وَهُوَ مُفْتَضَى الْحِكْمَةِ؛ حَيْثُ تَقْتَضِي أَنْ يُجْعَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْحَلِيقَةَ مَعَادًا، يُجَازِيهِمْ فِيهِ عَلَى مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] وَقَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

الثَّانِي: الْإِبَانُ بِالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ: يُحَاسِبُ الْعَبْدُ عَلَى عَمَلِهِ، وَيُجَازَى عَلَيْهِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ الْمُسْلِمِينَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ^(٢) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿[الغاشية: ٢٥-٢٦].

وَقَالَ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وَقَالَ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتَرْهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيُّ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ قَالَ: قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ. وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُؤُوسِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم (٦٥٢٧)، ومسلم: كتاب الجنة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٥٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الْخَلَائِقِ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ»^(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَصَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِثَّةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَأَنَّ مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»^(٢).

وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى إِبْتِائِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ، وَهُوَ مُفْتَضَى الْحِكْمَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ الْكُتُبَ، وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ، وَفَرَضَ عَلَى الْعِبَادِ قُبُولَ مَا جَاءُوا بِهِ، وَالْعَمَلَ بِمَا يَحِبُّ الْعَمَلُ بِهِ مِنْهُ، وَأَوْجَبَ قِتَالَ الْمُعَارِضِينَ لَهُ وَأَحْلَلَ دِمَاءَهُمْ، وَذَرَيَاتِهِمْ، وَنِسَاءَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ.

فَلَوْ لَمْ يَكُنْ حِسَابٌ وَلَا جَزَاءٌ لَكَانَ هَذَا مِنَ الْعَبَثِ الَّذِي يُنَزَّهُ الرَّبُّ الْحَكِيمُ عَنْهُ، وَقَدْ أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَبَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٣) فَلَنَقْضَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿[الأعراف: ٦-٧]

الثَّالِثُ: الْإِيمَانُ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَأَنَّهَا الْمَالُ الْأَبَدِيُّ لِلْخَلْقِ، فَالْجَنَّةُ دَارُ النَّعِيمِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانَ بِهِ، وَقَامُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، مُخْلِصِينَ لِلَّهِ، مُتَّبِعِينَ لِرَسُولِهِ، فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ النَّعِيمِ «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو سيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، رقم (١٣١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٧-٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وَأَمَّا النَّارُ فَهِيَ دَارُ الْعَذَابِ، الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلْكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ وَعَصَوْا رُسُلَهُ، فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا لَا يَحْطُرُّ عَلَى الْبَالِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ١٣١].

وَقَالَ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٦].

وَيَلْتَحِقُ بِالْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ: الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ، مِثْلُ:

أ- فِتْنَةُ الْقَبْرِ: وَهِيَ سُؤَالُ الْمَيِّتِ بَعْدَ دَفْنِهِ عَنْ: رَبِّهِ، وَدِينِهِ، وَنَبِيِّهِ، فَيُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ، فَيَقُولُ: «رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ». وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ، فَيَقُولُ الْكَافِرُ: «هَاهُ، هَاهُ، لَا أَدْرِي». وَيَقُولُ الْمُنَافِقُ أَوْ الْمُرْتَابُ: «لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ».

ب- عَذَابُ الْقَبْرِ وَنَعِيمُهُ: فَيَكُونُ الْعَذَابُ لِلظَّالِمِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وَقَالَ تَعَالَى فِي آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافِنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهُ أَنْ يُسَمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ». ثُمَّ أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ». قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ. فَقَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ». قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. قَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ». قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ. قَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ». قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ^(١).

وَأَمَّا نَعِيمُ الْقَبْرِ فَلِلْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصِيرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم (٢٨٦٧).

فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٌ ﴿[الواقعة: ٨٣-٨٩].﴾

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي الْمُؤْمِنِ إِذَا أَجَابَ الْمَلَائِكَةُ فِي قَبْرِهِ: «يُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْبَسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ. قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطَبِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّةَ بَصَرِهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ^(١).

وَلِلْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ثَمَرَاتٌ جَلِيلَةٌ مِنْهَا:

الْأُولَى: الرِّغْبَةُ فِي فِعْلِ الطَّاعَةِ، وَالْحِرْصُ عَلَيْهَا؛ رَجَاءٌ لِثَوَابِ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

الثَّانِيَةُ: الرَّهْبَةُ عِنْدَ فِعْلِ الْمَعْصِيَةِ، وَالرِّضَا بِهَا؛ خَوْفًا مِنْ عِقَابِ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

الثَّالِثَةُ: تَسْلِيَةُ الْمُؤْمِنِ عَمَّا يَقُوتُهُ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا يَرْجُوهُ مِنْ نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَثَوَابِهَا.

وَقَدْ أَتَكَرَّ الْكَافِرُونَ الْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ، رَاعِمِينَ أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُمَكِّنٍ.

وَهَذَا الزَّعْمُ بَاطِلٌ، دَلَّ عَلَى بُطْلَانِهِ الشَّرْعُ وَالْحِسُّ وَالْعَقْلُ.

أَمَّا الشَّرْعُ: فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧] وَقَدْ اتَّفَقَتْ جَمِيعُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا الْحِسُّ: فَقَدْ أَرَى اللَّهُ عِبَادَهُ إِحْيَاءَ الْمَوْتَى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ خَمْسَةُ أَمْثَلَةٍ عَلَى ذَلِكَ وَهِيَ:

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٨٧/٤)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر، رقم (٤٧٥٣).



الْمِثَالُ الْأَوَّلُ: قَوْمُ مُوسَى حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فَأَمَاتَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مُحَاطِبًا بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنْظَرُونَ ٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿ [البقرة: ٥٥-٥٦].

الْمِثَالُ الثَّانِي فِي قِصَّةِ الْقَتِيلِ الَّذِي اخْتَصَمَ فِيهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَذْبَحُوا بَقَرَةً، فَيَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا؛ لِيُخْبِرَهُمْ بِمَنْ قَتَلَهُ.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَءْهَا فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٧٢﴾ فَقُلْنَا أضرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُعْزِي اللَّهُ الْمُؤْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ [البقرة: ٧٢-٧٣].

الْمِثَالُ الثَّلَاثُ: فِي قِصَّةِ الْقَوْمِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ فَرَارًا مِنَ الْمَوْتِ، وَهُمْ أُلُوفٌ، فَأَمَاتَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَخْيَلَهُمْ ٢٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿ [البقرة: ٢٤٣].

الْمِثَالُ الرَّابِعُ: فِي قِصَّةِ الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ مَيِّتَةٍ، فَاسْتَبَعَدَ أَنْ يُحْيِيَهَا اللَّهُ تَعَالَى، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِئَةَ سَنَةٍ، ثُمَّ أَحْيَاهُ.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا

قَالَ أَنَّى يُعْجِ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَيْتَ قَالَ لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَيْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿البقرة: ٢٥٩﴾.

المِثَالُ الْخَامِسُ: فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْحَلِيلِ حِينَ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُرِيَهُ كَيْفَ يُحْيِي الْمَوْتَى، فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَذْبَحَ أَرْبَعَةَ مِنَ الطَّيْرِ، وَيُفَرِّقَهُنَّ أَجْزَاءً عَلَى الْجِبَالِ الَّتِي حَوْلَهُ، ثُمَّ يُنَادِيَهُنَّ، فَتَلْتَمِئُ الْأَجْزَاءُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَيَأْتِينَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ سَعْيًا. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿البقرة: ٢٦٠﴾. فَهَذِهِ أَمْثَلَةٌ حِسِّيَّةٌ وَافِعِيَّةٌ تُدُلُّ عَلَى إِمْكَانِيَّةِ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَقَدْ سَبَقَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى مَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ آيَاتِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَأَمَّا دَلَالَةُ الْعَقْلِ فَمِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا، خَالِقُهُمَا ابْتِدَاءً، وَالْقَادِرُ عَلَى ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ لَا يَعْجِزُ عَنْ إِعَادَتِهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾

[الأنبياء: ١٠٤].

وَقَالَ أَمْرًا بِالرَّدِّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ إِحْيَاءَ الْعِظَامِ وَهِيَ رَمِيمٌ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

الثَّانِي: أَنَّ الْأَرْضَ تَكُونُ مَيِّتَةً هَامِدَةً، لَيْسَ فِيهَا شَجَرَةٌ خَضِرَاءُ، فَيَنْزِلُ عَلَيْهَا الْمَطَرُ، فَتَهْتَزُّ خَضِرَاءَ حَيَّةٍ، فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ، وَالْقَادِرُ عَلَى إِحْيَائِهَا بَعْدَ مَوْتِهَا قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَمْوَاتِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩-١١].

وَقَدْ ضَلَّ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ فَأَنْكَرُوا عَذَابَ الْقَبْرِ وَنَعِيمَهُ، رَاعِمِينَ أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُمَكِّنٍ؛ لِمُخَالَفَةِ الْوَاقِعِ، قَالُوا: فَإِنَّهُ لَوْ كُشِفَ عَنِ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ لَوُجِدَ كَمَا كَانَ عَلَيْهِ، وَالْقَبْرُ لَمْ يَتَغَيَّرْ بِسَعَةِ وَلَا ضَيْقِ.

وَهَذَا الزَّعْمُ بَاطِلٌ بِالشَّرْعِ وَالْحِسِّ وَالْعَقْلِ:

أَمَّا الشَّرْعُ: فَقَدْ سَبَقَتِ النُّصُوصُ الدَّالَّةُ عَلَى ثُبُوتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ فِي فُقْرَةِ (ب) مِمَّا يُلْتَحَقُ بِالْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَعْضِ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ، فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذِّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا» وَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ: «أَنَّ أَحَدَهُمَا كَانَ لَا يَسْتَرُ مِنَ الْبَوْلِ - وَفِي رِوَايَةٍ: مِنْ بَوْلِهِ - وَأَنَّ الْآخَرَ كَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»^(١).

وَأَمَّا الْحِسُّ: فَإِنَّ النَّائِمَ يَرَى فِي مَنَامِهِ أَنَّهُ كَانَ فِي مَكَانٍ فَسِيحٍ بَهِيحٍ يَتَنَعَّمُ فِيهِ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ فِي مَكَانٍ ضَيِّقٍ مُوحِشٍ يَتَأَلَّمُ مِنْهُ، وَرُبَّمَا يَسْتَيْقِظُ أَحْيَانًا مِمَّا رَأَى، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ عَلَى فِرَاشِهِ فِي حُجْرَتِهِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَالنَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ؛ وَلِهَذَا سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى «وَفَاةً»، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

وَأَمَّا الْعَقْلُ: فَإِنَّ النَّائِمَ فِي مَنَامِهِ يَرَى الرُّؤْيَا الْحَقَّ الْمُطَابِقَةَ لِلْوَاقِعِ، وَرُبَّمَا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ عَلَى صِفَتِهِ - وَمَنْ رَأَاهُ عَلَى صِفَتِهِ فَقَدْ رَأَاهُ حَقًّا - وَمَعَ ذَلِكَ فَالنَّائِمُ فِي حُجْرَتِهِ عَلَى فِرَاشِهِ بَعِيدًا عَمَّا رَأَى. فَإِنْ كَانَ هَذَا مُمَكِّنًا فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا، أَفَلَا يَكُونُ مُمَكِّنًا فِي أَحْوَالِ الْآخِرَةِ!!؟

وَأَمَّا اعْتِمَادُهُمْ فِيمَا زَعَمُوهُ عَلَى أَنَّهُ لَوْ كُشِفَ عَنِ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ لَوُجِدَ كَمَا كَانَ عَلَيْهِ، وَالْقَبْرُ لَمْ يَتَغَيَّرْ بِسَعَةِ وَلَا ضَيْقٍ، فَجَوَابُهُ مِنْ وَجْهِهِ، مِنْهَا:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ لَا تَجَوُّزَ مُعَارَضَةً مَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ بِمِثْلِ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ الدَّاحِضَةِ الَّتِي لَوْ تَأَمَّلَ الْمُعَارِضُ بِهَا مَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ حَقَّ التَّأَمُّلِ لَعَلِمَ بُطْلَانَ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من الكبائر ألا يستتر من بوله، رقم (٢١٦)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢).

وَقَدْ قِيلَ^(١):

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وَافْتَهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

الثَّانِي: أَنَّ أَحْوَالَ الْبَرْزَخِ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ، الَّتِي لَا يُدْرِكُهَا الْحِسُّ، وَلَوْ كَانَتْ تُدْرِكُ بِالْحِسِّ لَفَاتَتْ فَائِدَةُ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، وَلَتَسَاوَى الْمُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَالْجَاهِدُونَ فِي التَّصَدِيقِ بِهَا.

الثَّالِثُ: أَنَّ الْعَذَابَ وَالنَّعِيمَ وَسَعَةَ الْقَبْرِ وَضِيقَهُ إِنَّمَا يُدْرِكُهَا الْمَيِّتُ دُونَ غَيْرِهِ، وَهَذَا كَمَا يَرَى النَّائِمُ فِي مَنَامِهِ أَنَّهُ فِي مَكَانٍ ضَيِّقٍ مُوحِشٍ، أَوْ فِي مَكَانٍ وَاسِعٍ بَهِيجٍ، وَهُوَ بِالنَّسَبَةِ لِعَظِيمِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ مَنَامُهُ، هُوَ فِي حُجْرَتِهِ، وَبَيْنَ فِرَاشِهِ وَغِطَائِهِ. وَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُوحَى إِلَيْهِ وَهُوَ بَيْنَ أَصْحَابِهِ، فَيَسْمَعُ الْوَحْيَ، وَلَا يَسْمَعُهُ الصَّحَابَةُ، وَرُبَّمَا يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلَكُ رَجُلًا فَيَكَلِّمُهُ^(٢)، وَالصَّحَابَةُ لَا يَرَوْنَ الْمَلَكَ وَلَا يَسْمَعُونَهُ.

الرَّابِعُ: أَنَّ إِدْرَاكَ الْخَلْقِ مَحْدُودٌ بِمَا مَكَّنَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ إِدْرَاكِهِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُدْرِكُوا كُلَّ مَوْجُودٍ، فَالَسَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَكُلُّ شَيْءٍ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَسْبِيحًا حَقِيقِيًّا يُسْمِعُهُ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ أَحْيَانًا، وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ مُحْجُوبٌ عَنَّا.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

(١) البيت للمتنبي، انظر: ديوانه (ص: ٢٣٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٢)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي، رقم (٢٣٣٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَتُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ^[١] وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الْأَرْكَانِ السِّتَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ الْآلِرَ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِدْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْآلِرَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وَدَلِيلُ الْقَدَرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وَهَكَذَا الشَّيَاطِينُ وَالْجِنُّ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ ذَهَابًا وَإِيَابًا، وَقَدْ حَضَرَتِ الْجَنُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَاسْتَمَعُوا لِقِرَاءَتِهِ وَأَنْصَتُوا، وَوَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ، وَمَعَ هَذَا فَهُمْ مُحْجُوبُونَ عَنَّا.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَبْنَى ءَادَمَ لَا يَفْنَىكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهْمًا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧] وَإِذَا كَانَ الْخَلْقُ لَا يُدْرِكُونَ كُلَّ مَوْجُودٍ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُنْكِرُوا مَا ثَبَتَ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ وَلَمْ يُدْرِكُوهُ.

[١] الْقَدَرُ يَفْتَحُ الدَّال: تَقْدِيرُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْكَائِنَاتِ، حَسْبًا سَبَقَ عِلْمُهُ، وَاقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ.

وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ:

الْأَوَّلُ: الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِمَ بِكُلِّ شَيْءٍ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، أَزَلًا وَأَبَدًا، سَوَاءً كَانَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَفْعَالِهِ أَوْ بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ.

الثَّانِي: الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ كَتَبَ ذَلِكَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَفِي هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»^(١).

الثَّالِثُ: الْإِيْيَانُ بِأَنَّ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى، سَوَاءٌ كَانَتْ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِفِعْلِهِ أَمْ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِفِعْلِ الْمَخْلُوقِينَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِفِعْلِهِ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٨٦].

وَقَالَ: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وَقَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦].

وَقَالَ تَعَالَى فِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِفِعْلِ الْمَخْلُوقِينَ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَّاكُمْ﴾

[النساء: ٩٠].

وَقَالَ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

الرَّابِعُ: الْإِيْيَانُ بِأَنَّ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى بِذَوَاتِهَا، وَصِفَاتِهَا، وَحَرَكَاتِهَا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ١٢].

وَقَالَ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وَقَالَ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ

وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦].

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب ذكر حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم (٢٦٥٣).

وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى مَا وَصَفْنَا لَا يُنَافِي أَنْ يَكُونَ لِلْعَبْدِ مَشِيئَةٌ فِي أَعْمَالِهِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ وَقُدْرَةٌ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ الشَّرْعَ وَالْوَاقِعَ دَالَّانِ عَلَى إِبْثَابِ ذَلِكَ لَهُ.

أَمَّا الشَّرْعُ: فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْمَشِيئَةِ: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَنَابًا﴾ [النبا: ٣٩]، وَقَالَ: ﴿فَاتَّوُوا حَرَثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وَقَالَ فِي الْقُدْرَةِ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: ١٦] وَقَالَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وَأَمَّا الْوَاقِعُ: فَإِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَعْلَمُ أَنَّ لَهُ مَشِيئَةً وَقُدْرَةً بِهَا يَفْعَلُ وَبِهَا يَتْرُكُ، وَيُفَرِّقُ بَيْنَ مَا يَقَعُ بِإِرَادَتِهِ كَالْمَشِيِّ وَمَا يَقَعُ بِغَيْرِ إِرَادَتِهِ كَالِارْتِعَاشِ، لَكِنْ مَشِيئَةُ الْعَبْدِ وَقُدْرَتُهُ وَاقِعَتَانِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿[التكوير: ٢٨-٢٩] وَلِأَنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ مِلْكٌ لِلَّهِ تَعَالَى، فَلَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ شَيْءٌ يَدُونِ عَلَيْهِ وَمَشِيئَتِهِ.

وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى مَا وَصَفْنَا لَا يَمْنَحُ الْعَبْدَ حُجَّةً عَلَى مَا تَرَكَ مِنَ الْوَاجِبَاتِ أَوْ فَعَلَ مِنَ الْمَعَاصِي، وَعَلَى هَذَا فَاحْتِجَاجُهُ بِهِ بَاطِلٌ مِنْ وَجْهِ:

الْأَوَّلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنَ الْقَبْلِ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ دَاوُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨] وَلَوْ كَانَ لَهُمْ حُجَّةٌ بِالْقَدَرِ مَا أَذَاقَهُمُ اللَّهُ بَأْسَهُ.

الثَّانِي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ

بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿[النساء: ١٦٥] وَلَوْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً لِلْمُخَالِفِينَ لَمْ تَنْتَفِ بِإِزْسَالِ الرُّسُلِ؛ لِأَنَّ الْمُخَالَفَةَ بَعْدَ إِزْسَالِهِمْ وَاقِعَةٌ بِقَدْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

الثَّالِثُ: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ - وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ - عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا قَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ أَوْ مِنَ الْجَنَّةِ». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَلَا نَتَكَلَّى يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا، اْعْمَلُوا؛ فَكُلُّ مُيسَّرٍ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ الآية^(١)، وَفِي لَفْظِ مُسْلِمٍ: «فَكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْعَمَلِ، وَنَهَى عَنِ الْإِتِّكَالِ عَلَى الْقَدْرِ.

الرَّابِعُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ الْعَبْدَ وَنَهَاهُ، وَلَمْ يُكَلِّفْهُ إِلَّا مَا يَسْتَطِيعُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَقْصُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وَقَالَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وَلَوْ كَانَ الْعَبْدُ مُجْبَرًا عَلَى الْفِعْلِ لَكَانَ مُكَلَّفًا بِمَا لَا يَسْتَطِيعُ الْخَلَّاصَ مِنْهُ، وَهَذَا بَاطِلٌ؛ وَلِذَلِكَ إِذَا وَقَعَتْ مِنْهُ الْمَعْصِيَةُ بِجَهْلٍ، أَوْ نِسْيَانٍ، أَوْ إِكْرَاهٍ، فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ مَعْدُورٌ.

الخَامِسُ: أَنَّ قَدَرَ اللَّهِ تَعَالَى سِرٌّ مَكْتُومٌ، لَا يُعْلَمُ بِهِ إِلَّا بَعْدَ وَقُوعِ الْمَقْدُورِ، وَإِرَادَةُ الْعَبْدِ لِمَا يَفْعَلُهُ سَابِقَةٌ عَلَى فِعْلِهِ، فَتَكُونُ إِرَادَتُهُ الْفِعْلَ غَيْرَ مَبْنِيَّةٍ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِقَدْرِ اللَّهِ، وَحِينَئِذٍ تَنْتَفِي حُجَّتُهُ بِالْقَدْرِ؛ إِذَا لَا حُجَّةَ لِلْمَرْءِ فِيهَا لَا يَعْلَمُهَا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾، رقم (٤٩٤٥)، وأخرجه مسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٧)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

السَّادِسُ: أَنَّنَا نَرَى الْإِنْسَانَ يَحْرِصُ عَلَى مَا يَلَائِمُهُ مِنْ أُمُورِ دُنْيَاهُ حَتَّى يَذِرَ كُهُ، وَلَا يَعْدِلُ عَنْهُ إِلَى مَا لَا يَلَائِمُهُ، ثُمَّ يَحْتَجُّ عَلَى عُدُولِهِ بِالْقَدَرِ، فَلَمَّاذَا يَعْدِلُ عَمَّا يَنْفَعُهُ فِي أُمُورِ دِينِهِ إِلَى مَا يَضُرُّهُ ثُمَّ يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ؟! أَفَلَيْسَ شَأْنُ الْأَمْرَيْنِ وَاحِدًا؟!!

وَالَيْكَ مِثَالٌ يُوضِّحُ ذَلِكَ: لَوْ كَانَ بَيْنَ يَدَيِ الْإِنْسَانِ طَرِيقَانِ، أَحَدُهُمَا يَنْتَهِي بِهِ إِلَى بَلَدٍ كُلُّهَا فَوْضَى، وَقَتْلٌ، وَهَبٌّ، وَانْتِهَاكٌ لِلْأَعْرَاضِ، وَخَوْفٌ، وَجُوعٌ. وَالثَّانِي يَنْتَهِي بِهِ إِلَى بَلَدٍ كُلُّهَا نِظَامٌ، وَأَمْنٌ مُسْتَبِطٌ، وَعَيْشٌ رَغِيدٌ، وَاحْتِرَامٌ لِلنُّفُوسِ وَالْأَعْرَاضِ وَالْأَمْوَالِ. فَأَيُّ الطَّرِيقَيْنِ يَسْلُكُ؟ إِنَّهُ سَيَسْلُكُ الطَّرِيقَ الثَّانِي الَّذِي يَنْتَهِي بِهِ إِلَى بَلَدِ النِّظَامِ وَالْأَمْنِ، وَلَا يُمَكِّنُ لِأَيِّ عَاقِلٍ أَبَدًا أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقَ بَلَدِ الْفَوْضَى وَالْخَوْفِ، وَيَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ، فَلَمَّاذَا يَسْلُكُ فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ طَرِيقَ النَّارِ دُونَ الْجَنَّةِ وَيَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ؟!!

مِثَالٌ آخَرُ: نَرَى الْمَرِيضَ يُؤَمِّرُ بِالْدَّوَاءِ فَيَشْرِبُهُ وَنَفْسُهُ لَا تَشْتَهِيهِ، وَيُنْهَى عَنِ الطَّعَامِ الَّذِي يَضُرُّهُ فَيَتْرُكُهُ وَنَفْسُهُ تَشْتَهِيهِ، كُلُّ ذَلِكَ طَلَبًا لِلشِّفَاءِ وَالسَّلَامَةِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَمْتَنِعَ عَنْ شُرْبِ الدَّوَاءِ أَوْ يَأْكُلَ الطَّعَامَ الَّذِي يَضُرُّهُ وَيَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ. فَلَمَّاذَا يَتْرُكُ الْإِنْسَانُ مَا أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، أَوْ يَفْعَلُ مَا نَهَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ؟

السَّابِعُ: أَنَّ الْمُحْتَجَّ بِالْقَدَرِ عَلَى مَا تَرَكَهُ مِنَ الْوَاجِبَاتِ أَوْ فَعَلَهُ مِنَ الْمَعَاصِي، لَوْ اعْتَدَى عَلَيْهِ شَخْصٌ فَأَخَذَ مَالَهُ، أَوْ انْتَهَكَ حُرْمَتَهُ، ثُمَّ احْتَجَّ بِالْقَدَرِ، وَقَالَ: لَا تَلْمَنِي فَإِنَّ اعْتِدَائِي كَانَ بِقَدَرِ اللَّهِ، لَمْ يَقْبَلْ حُجَّتَهُ. فَكَيْفَ لَا يَقْبَلُ الْإِحْتِجَاجَ بِالْقَدَرِ فِي اعْتِدَاءِ غَيْرِهِ عَلَيْهِ، وَيَحْتَجُّ بِهِ لِنَفْسِهِ فِي اعْتِدَائِهِ عَلَى حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى؟!!

وَيَذْكُرُ أَنَّ - أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رُفِعَ إِلَيْهِ سَارِقٌ اسْتَحَقَّ الْقَطْعَ، فَأَمَرَ بِقَطْعِ يَدِهِ فَقَالَ: مَهْلًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّمَا سَرَقْتُ بِقَدْرِ اللَّهِ. فَقَالَ: وَنَحْنُ إِنَّمَا نَقْطَعُ بِقَدْرِ اللَّهِ.

وَلِلْإِيمَانِ بِالْقَدْرِ ثَمَرَاتٌ جَلِيلَةٌ، مِنْهَا:

الأولى: الإِعْتِمَادُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ فِعْلِ الْأَسْبَابِ، بِحَيْثُ لَا يَعْتَمِدُ عَلَى السَّبَبِ نَفْسِهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِقَدْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

الثانية: أَنْ لَا يُعْجَبَ الْمَرْءُ بِنَفْسِهِ عِنْدَ حُصُولِ مُرَادِهِ؛ لِأَنَّ حُصُولَهُ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، بِمَا قَدَّرَهُ مِنْ أَسْبَابِ الْخَيْرِ وَالنَّجَاحِ، وَإِعْجَابُهُ بِنَفْسِهِ يُنْسِيهِ شُكْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ.

الثالثة: الطَّمَأْنِينَةُ، وَالرَّاحَةُ النَّفْسِيَّةُ بِمَا يَجْرِي عَلَيْهِ مِنْ أَقْدَارِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَا يَقْلُقُ بِفَوَاتٍ مَحْبُوبٍ، أَوْ حُصُولِ مَكْرُوهٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ بِقَدْرِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿[الحديد: ٢٢-٢٣].

وَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرفائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩)، من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَدْ ضَلَّ فِي الْقَدَرِ طَائِفَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: الْجَبَرِيَّةُ، الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ الْعَبْدَ مُجْبَرٌ عَلَى عَمَلِهِ، وَلَيْسَ لَهُ فِيهِ إِرَادَةٌ وَلَا قُدْرَةٌ.

الثَّانِيَةُ: الْقَدَرِيَّةُ، الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ الْعَبْدَ مُسْتَقِلٌّ بِعَمَلِهِ فِي الْإِرَادَةِ وَالْقُدْرَةِ، وَلَيْسَ لِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ فِيهِ أَثَرٌ.

وَالرَّدُّ عَلَى الطَّائِفَةِ الْأُولَى (الْجَبَرِيَّةِ) بِالشَّرْعِ وَالْوَاقِعِ:

أَمَّا الشَّرْعُ: فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْبَتَ لِلْعَبْدِ إِرَادَةً وَمَشِيئَةً، وَأَصَافَ الْعَمَلَ إِلَيْهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل

عمران: ١٥٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا

لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩] الْآيَةَ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾

[فصلت: ٤٦].

وَأَمَّا الْوَاقِعُ: فَإِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَعْلَمُ الْفَرْقَ بَيْنَ أَفْعَالِهِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ الَّتِي يَفْعَلُهَا

بِإِرَادَتِهِ كَالْأَكْلِ، وَالشُّرْبِ، وَالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، وَبَيْنَ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ بِغَيْرِ إِرَادَتِهِ كَالِإِزْنَعَاشِ

مِنَ الْحُمَى، وَالسَّقُوطِ مِنَ السَّطْحِ، فَهُوَ فِي الْأَوَّلِ فَاعِلٌ مُخْتَارٌ بِإِرَادَتِهِ مِنْ غَيْرِ جَبَرٍ،

وَفِي الثَّانِي غَيْرُ مُخْتَارٍ وَلَا مُرِيدٍ لَهَا وَقَعَ عَلَيْهِ.

الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الْإِحْسَانُ، رُكْنٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٢١٧) الَّذِي يَرِنَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [سورة يونس: ٦١] ^[١].

وَالرَّدُّ عَلَى الطَّائِفَةِ الثَّانِيَةِ (الْقَدَرِيَّةِ) بِالشَّرْعِ وَالْعَقْلِ:

أَمَّا الشَّرْعُ: فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ كَائِنٌ بِمَشِئَتِهِ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ تَقَعُ بِمَشِئَتِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وَأَمَّا الْعَقْلُ: فَإِنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ مَمْلُوكٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالْإِنْسَانُ مِنْ هَذَا الْكَوْنِ، فَهُوَ مَمْلُوكٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَلَا يُمَكِّنُ لِلْمَمْلُوكِ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي مُلْكِ الْمَالِكِ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَمَشِئَتِهِ.

[١] الْإِحْسَانُ ضِدُّ الْإِسَاءَةِ، وَهُوَ أَنْ يَبْذُلَ الْإِنْسَانُ الْمَعْرُوفَ وَيَكْفُفَ الْأَذَى، فَيَبْذُلُ الْمَعْرُوفَ لِعِبَادِ اللَّهِ فِي مَالِهِ، وَجَاهِهِ، وَعِلْمِهِ، وَبَدَنِهِ.

فَأَمَّا الْمَالُ فَإِنْ يُنْفَقَ وَيَتَصَدَّقَ وَيُزَكَّى، وَأَفْضَلُ أَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ بِالْمَالِ الزَّكَاةُ؛ لِأَنَّ الزَّكَاةَ أَحَدَ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَمَبَانِيهِ الْعِظَامِ، وَلَا يَتِمُّ إِسْلَامُ الْمَرْءِ إِلَّا بِهَا، وَهِيَ أَحَبُّ

النَّفَقَاتِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَيَلِي ذَلِكَ مَا يَحِبُّ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ نَفَقَةٍ لِرَوْجَتِهِ، وَأُمِّهِ، وَأَبِيهِ، وَذُرِّيَّتِهِ، وَإِخْوَانِهِ، وَبَنِي إِخْوَتِهِ، وَأَخَوَاتِهِ، وَأَعْمَامِهِ، وَعَمَّاتِهِ، وَخَالَاتِهِ، إِلَى آخِرِ هَذَا، ثُمَّ الصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسَاكِينِ وَغَيْرِهِمْ، مِمَّنْ هُمْ أَهْلٌ لِلصَّدَقَةِ، كَطُلَّابِ الْعِلْمِ مَثَلًا.

وَأَمَّا بِذُلِّ الْمَعْرُوفِ فِي الْجَاهِ فَهُوَ أَنَّ النَّاسَ مَرَاتِبُ، مِنْهُمْ مَنْ لَهُ جَاهٌ عِنْدَ ذَوِي السُّلْطَانِ، فَيَبْذُلُ الْإِنْسَانُ جَاهَهُ، يَأْتِيهِ رَجُلٌ فَيَطْلُبُ مِنْهُ الشَّفَاعَةَ إِلَى ذِي السُّلْطَانِ يَشْفَعُ لَهُ عِنْدَهُ؛ إِمَّا بِدَفْعِ ضَرَرٍ عَنْهُ، أَوْ بِجَلْبِ خَيْرٍ لَهُ.

وَأَمَّا بِعِلْمِهِ فَإِنَّ يَبْذُلُ عِلْمَهُ لِعِبَادِ اللَّهِ، تَعْلِيمًا فِي الْحَلَقَاتِ وَالْمَجَالِسِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، حَتَّى لَوْ كُنْتَ فِي مَجْلِسِ فَهْوَةٍ، فَإِنَّ مِنَ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ أَنْ تُعَلِّمَ النَّاسَ، وَلَوْ كُنْتَ فِي مَجْلِسِ عَامٍّ فَمِنَ الْخَيْرِ أَنْ تُعَلِّمَ النَّاسَ، وَلَكِنْ اسْتَغْمِلِ الْحِكْمَةَ فِي هَذَا الْبَابِ، فَلَا تُثْقِلْ عَلَى النَّاسِ حَيْثُ كُلَّمَا جَلَسْتَ فِي مَجْلِسٍ جَعَلْتَ تَعْظُمُهُمْ وَتَتَحَدَّثُ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَخَوَّلُهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ^(١) وَلَا يُكْثِرُ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ تَسْأَمُ وَتَمَلُّ، فَإِذَا مَلَتْ كَلَّتْ وَضَعُفَتْ، وَرَبَّمَا تَكَرَّهُ الْخَيْرُ؛ لِكَثْرَةِ مَنْ يَقُومُ وَيَتَكَلَّمُ.

وَأَمَّا الْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ بِالْبَدَنِ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةً»^(٢) فَهَذَا رَجُلٌ تُعِينُهُ تَحْمِلُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم، رقم (٦٨)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب الاقتصاد في الموعظة، رقم (٢٨٢١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب فضل من حمل متاع صاحبه في السفر، رقم (٢٨٩١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَتَاعُهُ مَعَهُ، أَوْ تَدُلُّهُ عَلَى طَرِيقِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْإِحْسَانِ. هَذَا بِالنِّسْبَةِ لِلْإِحْسَانِ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ.

وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْإِحْسَانِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ: فَإِنَّ تَعْبُدَ اللَّهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، وَهَذِهِ الْعِبَادَةُ - أَيْ عِبَادَةُ الْإِنْسَانِ رَبَّهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ - عِبَادَةُ طَلَبٍ وَشَوْقٍ، وَعِبَادَةُ الطَّلَبِ وَالشَّوْقِ يَجِدُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ حَائِثًا عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهُ يَطْلُبُ هَذَا الَّذِي يُحِبُّهُ، فَهُوَ يَعْْبُدُهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، فَيَقْصِدُهُ، وَيُنِيبُ إِلَيْهِ، وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

«فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» وَهَذِهِ عِبَادَةُ الْهَرَبِ وَالْخَوْفِ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ ثَانِيَةً فِي الْإِحْسَانِ، إِذَا لَمْ تَكُنْ تَعْبُدُ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ كَأَنَّكَ تَرَاهُ وَتَطْلُبُهُ، وَتَحُثُّ النَّفْسَ لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ فَاعْبُدْهُ كَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَرَاكَ، فَتَعْبُدُهُ عِبَادَةَ خَائِفٍ مِنْهُ، هَارِبٍ مِنْ عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ، وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ عِنْدَ أَرْبَابِ السُّلُوكِ أَدْنَى مِنَ الدَّرَجَةِ الْأُولَى.

وَعِبَادَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هِيَ كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ^(١):

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ

فَالْعِبَادَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ: غَايَةِ الْحَبِّ، وَغَايَةِ الذُّلِّ؛ فَفِي الْحَبِّ الطَّلَبُ، وَفِي الذُّلِّ الْخَوْفُ وَالْهَرَبُ، فَهَذَا هُوَ الْإِحْسَانُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، فَإِنَّهُ سَوْفَ يَكُونُ مُخْلِصًا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَا يُرِيدُ بِعِبَادَتِهِ رِبَاءً وَلَا سُمْعَةً، وَلَا مَدْحًا عِنْدَ النَّاسِ، وَسَوَاءٌ أَطْلَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ أَمْ لَمْ يَطْلُعُوا، الْكُلُّ عِنْدَهُ سَوَاءٌ، وَهُوَ مُحْسِنُ الْعِبَادَةِ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

(١) انظر: شرح الكافية الشافية - نونية ابن القيم - لفضيلة الشيخ الشارح رحمه الله تعالى (١/ ٣٦٥).

وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جَبْرَائِيلَ الْمَشْهُورُ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تَوُثِّقَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: صَدَقْتَ.

بَلْ إِنَّ مِنْ تَمَامِ الْإِحْلَاصِ أَنْ يَخْرِصَ الْإِنْسَانُ عَلَى أَلَّا يَرَاهُ النَّاسُ فِي عِبَادَتِهِ، وَأَنْ تَكُونَ عِبَادَتُهُ مَعَ رَبِّهِ سِرًّا، إِلَّا إِذَا كَانَ فِي إِعْلَانِ ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ أَوْ لِلْإِسْلَامِ، مِثْلَ أَنْ يَكُونَ رَجُلًا مَتَّبُوعًا يُقْتَدَى بِهِ، وَأَحَبُّ أَنْ يُبَيِّنَ عِبَادَتَهُ لِلنَّاسِ؛ لِيَأْخُذُوا مِنْ ذَلِكَ نَبْرَاسًا يَسِيرُونَ عَلَيْهِ، أَوْ كَانَ هُوَ يُحِبُّ أَنْ يُظْهِرَ الْعِبَادَةَ؛ لِيَقْتَدِيَ بِهَا رُمَلَاؤُهُ وَقُرَنَائُوهُ وَأَصْحَابُهُ، فَفِي هَذَا خَيْرٌ.

وَهَذِهِ الْمَصْلَحَةُ الَّتِي يَلْتَمِصُ إِلَيْهَا قَدْ تَكُونُ أَفْضَلُ وَأَعْلَى مِنْ مَصْلَحَةِ الْإِخْفَاءِ؛ هَذَا يُشْنِي اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، فَإِذَا كَانَ السِّرُّ أَصْلَحَ وَانْفَعَ لِلْقَلْبِ وَأَخْشَعَ وَأَشَدَّ إِنَابَةً إِلَى اللَّهِ أَسْرَوْا، وَإِذَا كَانَ فِي الْإِعْلَانِ مَصْلَحَةٌ لِلْإِسْلَامِ بِظُهُورِ شَرَائِعِهِ، وَلِلْمُسْلِمِينَ يَقْتَدُونَ بِهَذَا الْفَاعِلِ وَهَذَا الْعَامِلِ - أَعْلَنُوهُ.

وَالْمُؤْمِنُ يَنْظُرُ مَا هُوَ الْأَصْلَحُ، كُلَّمَا كَانَ أَصْلَحَ وَانْفَعَ فِي الْعِبَادَةِ فَهُوَ أَكْمَلُ وَأَفْضَلُ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ». قَالَ: فَمَضَى، فَلَبِثْنَا مَلِيًّا فَقَالَ: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هَذَا جَبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ»^[١].

[١] رَوَاهُ مُسْلِمٌ، كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَغَالِبُ هَذَا الْحَدِيثِ تَقَدَّمَ شَرْحُهُ، وَلَنَا شَرْحٌ عَلَيْهِ فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى وَالرَّسَائِلِ (١٤٣/٣).



الأصل الثالث^[١]:

مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْحَلِيلِ، عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ: ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ نَبِيًّا وَرَسُولًا، نُبِيٌّ بِأَقْرَأُ، وَأُرْسِلَ بِالْمَدَنِيِّ، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ، وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ.

[١] أَي: مِنَ الْأَصُولِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا، وَهِيَ مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ.

وَقَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ وَدِينَهُ.

وَأَمَّا مَعْرِفَةُ النَّبِيِّ ﷺ فَتَتَضَمَّنُ خَمْسَةَ أُمُورٍ:

الْأَوَّلُ: مَعْرِفَتُهُ نَسَبًا، فَهُوَ أَشْرَفُ النَّاسِ نَسَبًا، فَهُوَ هَاشِمِيُّ قُرَيْشٍ عَرَبِيٌّ، فَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، إِلَى آخِرِ مَا قَالَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

الثَّانِي: مَعْرِفَةُ سَنَتِهِ، وَمَكَانِ وَلَادَتِهِ، وَمُهَاجَرَتِهِ، وَقَدْ بَيَّنَّهَا الشَّيْخُ بِقَوْلِهِ: «وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً»، «وَبَلَدُهُ مَكَّةُ، وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ» فَقَدْ وُلِدَ بِمَكَّةَ وَبَقِيَ فِيهَا ثَلَاثًا وَخَمْسِينَ سَنَةً، ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَبَقِيَ فِيهَا عَشْرَ سِنِينَ، ثُمَّ تُوُفِّيَ فِيهَا فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ بَعْدَ الْهَجْرَةِ.

الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ حَيَاتِهِ النَّبَوِيَّةِ، وَهِيَ ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، فَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْهِ وَلَهُ

أَرْبَعُونَ سَنَةً، كَمَا قَالَ أَحَدُ شُعَرَائِهِ^(١):

وَأَنْتَ عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ فَأَشْرَقَتْ شَمْسُ النُّبُوَّةِ مِنْهُ فِي رَمَضَانَ

الرَّابِعُ: بِمَاذَا كَانَ نَبِيًّا وَرَسُولًا؟

فَقَدْ كَانَ نَبِيًّا حِينَ نَزَلَ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ [العلق: ١-٥] ثُمَّ كَانَ رَسُولًا حِينَ نَزَلَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنْذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَبَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ⑦﴾ [المدثر: ١-٧].

فَقَامَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَأَنْذَرَ وَقَامَ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الرَّسُولِ وَالنَّبِيِّ كَمَا يَقُولُ أَهْلُ الْعِلْمِ: أَنَّ النَّبِيَّ هُوَ مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِتَبْلِيغِهِ، وَالرَّسُولُ مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ، وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولًا.

الخَامِسُ: بِمَاذَا أُرْسِلَ وَلِمَاذَا؟

فَقَدْ أُرْسِلَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَشَرِيعَتِهِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِفِعْلِ الْمَأْمُورِ وَتَرْكِ الْمَحْظُورِ، وَأُرْسِلَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؛ لِإِخْرَاجِهِمْ مِنْ ظُلُمَةِ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ وَالْجَهْلِ إِلَى نُورِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ؛ حَتَّى يَنَالُوا بِذَلِكَ مَغْفِرَةَ اللَّهِ وَرِضْوَانَهُ، وَيَنْجُوا مِنْ عِقَابِهِ وَسُخْطِهِ.

(١) البيت ليحيى الصرصري في نونيته (معارج الأنوار في سيرة النبي المختار)، انظر: زاد المعاد (٧٧/١).

بَعَثَهُ اللَّهُ بِالنَّذَارَةِ عَنِ الشُّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ^[١] وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿يَأْتِيهَا الْمُدُنُ^(١) قُرًى فَلَانْدُرُ^(٢) وَرَبِّكَ فَكَذِبَ^(٣) وَبَابُكَ فَطَهَرُ^(٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرُ^(٥)
وَلَا تَمْنَنَّ تَشْكُرُ^(٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرُ﴾ [المدثر: ١-٧].

وَمَعْنَى ﴿قُرًى فَلَانْدُرُ﴾: يُنْذِرُ عَنِ الشُّرْكِ وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ. ﴿وَرَبِّكَ فَكَذِبَ﴾
أَيُّ: عَظَمَهُ بِالتَّوْحِيدِ ﴿وَبَابُكَ فَطَهَرُ﴾ أَيُّ: طَهَّرَ أَعْمَالَكَ عَنِ الشُّرْكِ ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرُ﴾
الرُّجْزُ: الْأَصْنَامُ، وَهَجَرُهَا: تَرَكُهَا، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلُهَا، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ
سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ^[١] وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ^[٢].....

[١] أَيُّ: يُنْذِرُهُمْ عَنِ الشُّرْكِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي رُبُوبِيَّتِهِ
وَأُلُوهِيَّتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

[٢] النِّدَاءُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٣] يَأْمُرُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَقُومَ بِحُجَّةٍ وَنَشَاطٍ، وَيُنْذِرَ النَّاسَ عَنِ الشُّرْكِ،
وَيُحَذِّرُهُمْ مِنْهُ، وَقَدْ فَسَّرَ الشَّيْخُ هَذِهِ الْآيَاتِ.

[١] أَيُّ أَنْ النَّبِيَّ ﷺ بَقِيَ عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَإِفْرَادِهِ
بِالْعِبَادَةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

[٢] الْعُرُوجُ الصُّعُودُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَمْرُجُ الْمَلَكِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾
[المارج: ٤] وَهُوَ مِنْ خَصَائِصِ النَّبِيِّ ﷺ الْعَظِيمَةِ، الَّتِي فَضَّلَهُ اللَّهُ بِهِ قَبْلَ أَنْ يُهَاجَرَ مِنْ
مَكَّةَ.

فَبَيْنَمَا هُوَ نَائِمٌ فِي الْحِجْرِ فِي الْكَعْبَةِ أَتَاهُ آتٌ، فَشَقَّ مَا بَيْنَ ثَغْرَةِ نَحْرِهِ إِلَى أَسْفَلِ
بَطْنِهِ، ثُمَّ اسْتَخْرَجَ قَلْبَهُ، فَمَلَأَهُ حِكْمَةً وَإِيمَانًا؛ تَهَيَّئَةً لِمَا سَيَقُومُ بِهِ، ثُمَّ أَتَى بِدَائِيَةِ بَيْضَاءَ

دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ، يُقَالُ لَهَا: الْبُرَاقُ، يَضَعُ خَطْوُهُ عِنْدَ مُتَهَيِّ طَرَفِهِ، فَرَكِبَهُ ﷺ وَبِصُحْبَتِهِ جَبْرِيلُ الْأَمِينُ، حَتَّى وَصَلَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، فَنَزَلَ هُنَاكَ وَصَلَّى بِالْأَنْبِيَاءِ إِمَامًا، بِكُلِّ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، يُصَلُّونَ خَلْفَهُ؛ لِيَتَّبِعَنَّ بِذَلِكَ فَضْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَشَرَفَهُ، وَأَنَّهُ الْإِمَامُ الْمَتَّبُوعُ.

ثُمَّ عَرَجَ بِهِ جَبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جَبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ. فَفُتِحَ لَهُ، فَوَجَدَ فِيهَا آدَمَ، فَقَالَ جَبْرِيلُ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْإِبْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. وَإِذَا عَلَى يَمِينِ آدَمَ أَرْوَاحُ السُّعَدَاءِ وَعَلَى يَسَارِهِ أَرْوَاحُ الْأَشْقِيَاءِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَى الْيَمِينِ سُرَّ وَضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قَبِيلَ شِمَالِهِ بَكَى.

ثُمَّ عَرَجَ بِهِ جَبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ... إلخ. فَوَجَدَ فِيهَا يَحْيَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُمَا ابْنَا الْحَالَةِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ابْنُ خَالَةِ الْآخَرِ، فَقَالَ جَبْرِيلُ: هَذَانِ يَحْيَى وَعِيسَى، فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا. فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا، فَرَدَّا السَّلَامَ، وَقَالَا: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ عَرَجَ بِهِ جَبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ... إلخ. فَوَجَدَ فِيهَا يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَالَ جَبْرِيلُ: هَذَا يُوسُفُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ عَرَجَ بِهِ جَبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ... إلخ، فَوَجَدَ فِيهَا إِدْرِيسَ ﷺ،

فَقَالَ جِبْرِيلُ: هَذَا إِدْرِيسُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ عَرَجَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ... إلخ. فَوَجَدَ فِيهَا هَارُونَ بْنَ عِمْرَانَ أَخَا مُوسَى ﷺ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: هَذَا هَارُونُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ عَرَجَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ... إلخ. فَوَجَدَ فِيهَا مُوسَى ﷺ، فَقَالَ جِبْرِيلُ هَذَا مُوسَى، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. فَلَمَّا تَجَاوَزَهُ بَكَى مُوسَى، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: «أَبْكِي؛ لِأَنَّ غُلَامًا بَعَثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرَ مَنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي» فَكَانَ بُكَاءُ مُوسَى حُزْنًا عَلَى مَا فَاتَ أُمَّتَهُ مِنَ الْفَضَائِلِ، لَا حَسَدًا لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

ثُمَّ عَرَجَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ... إلخ. فَوَجَدَ فِيهَا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ ﷺ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: هَذَا أَبُوكَ إِبْرَاهِيمُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْإِبْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

وَأَمَّا طَافَ جِبْرِيلُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ؛ تَكْرِيمًا لَهُ، وَإِظْهَارًا لِشَرَفِهِ وَفَضْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، الَّذِي يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، يَتَعَبَّدُونَ وَيُصَلُّونَ، ثُمَّ يُخْرَجُونَ وَلَا يَعُودُونَ، فِي الْيَوْمِ الثَّانِي يَأْتِي غَيْرُهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ لَا يُخَصِّصُهُمْ إِلَّا اللَّهُ.

وَفَرَضْتُ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلَاثَ سِنِينَ^[١]،

ثُمَّ رَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى سِدْرَةِ الْمُتَهَيَّ، فَعَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مِنَ الْبَهَاءِ وَالْحُسْنِ مَا عَشِيَهَا، حَتَّى لَا يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا، ثُمَّ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ، خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَرَضِي بِذَلِكَ، وَسَلَّمْ، ثُمَّ نَزَلَ، فَلَمَّا مَرَّ بِمُوسَى قَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قَالَ: خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ. فَقَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، وَقَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَارْجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، وَمَا زَالَ يُرَاجِعُ رَبَّهُ حَتَّى اسْتَقَرَّتِ الْفَرِيضَةُ عَلَى خَمْسٍ، فَتَادَى مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَلَى عِبَادِي.

وَفِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ أُدْخِلَ النَّبِيُّ ﷺ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا قِيَابُ اللَّوْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ، ثُمَّ نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ بِغَلَسٍ، وَصَلَّى فِيهَا الصُّبْحَ^(١).

[١] وَكَانَ يُصَلِّي الرُّبَاعِيَّةَ رَكَعَتَيْنِ، حَتَّى هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَأَقَرَّتْ صَلَاةُ السَّفَرِ، وَزِيدَ فِي صَلَاةِ الْحَضَرِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ بَدَأِ الْخَلْقِ، بَابُ ذِكْرِ الْمَلَائِكَةِ، رَقْمُ (٣٢٠٧)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الْإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَقْمُ (١٦٤)، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، بَابُ ذِكْرِ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، رَقْمُ (٣٣٤٢)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الْإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّمَاوَاتِ، رَقْمُ (١٦٣)، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الْإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّمَاوَاتِ، رَقْمُ (١٦٢)، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَبَعْدَهَا أَمْرٌ بِالْهَجْرَةِ^[٢] إِلَى الْمَدِينَةِ،

[٢] أَمَرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ نَبِيَّهٖ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ لِأَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ مَنَعُوهُ أَنْ يُقِيمَ دَعْوَتَهُ، وَفِي شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ مِنَ الْعَامِ الثَّالِثِ عَشَرَ مِنَ الْبُعْثَةِ وَصَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ مُهَاجِرًا مِنْ مَكَّةَ الْبَلَدِ الْأَوَّلِ لِلْوَحْيِ، وَأَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ مُهَاجِرًا بِإِذْنِ رَبِّهِ بَعْدَ أَنْ قَامَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُبَلِّغُ رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَيَدْعُو إِلَيْهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، فَلَمْ يَجِدْ مِنْ أَكْثَرِ قُرَيْشٍ وَأَكَابِرِهِمْ سِوَى الرَّفْضِ لِدَعْوَتِهِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْهَا، وَالْإِذَاءِ الشَّدِيدِ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَمَنْ آمَنَ بِهِ.

حَتَّى آلَ الْأَمْرُ بِهِمْ إِلَى تَنْفِيزِ خُطَّةِ الْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ لِقَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ؛ حَيْثُ اجْتَمَعَ كِبَرَاؤُهُمْ فِي دَارِ النَّدْوَةِ، وَتَشَاوَرُوا مَاذَا يَفْعَلُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَأَوْا أَصْحَابَهُ يَهَاجِرُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُلْحَقَ بِهِمْ، وَيَجِدَ النُّصْرَةَ وَالْعَوْنَ مِنَ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ بَايَعُوهُ عَلَى أَنْ يَمْنَعُوهُ مِمَّا يَمْنَعُونَ مِنْهُ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ، وَحِينَئِذٍ تَكُونُ لَهُ الدَّوْلَةُ عَلَى قُرَيْشٍ.

فَقَالَ عَدُوُّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ: الرَّأْيُ أَنْ نَأْخُذَ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ فَتَى شَابًّا جَلْدًا، ثُمَّ نُعْطِي كُلَّ وَاحِدٍ سَيْفًا صَارِمًا، ثُمَّ يَعْمِدُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَضْرِبُوهُ ضَرْبَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَيَقْتُلُوهُ وَنَسْتَرِيحُ مِنْهُ، فَيَتَفَرَّقَ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ -يَعْنِي عَشِيرَةَ النَّبِيِّ ﷺ- أَنْ يُحَارِبُوا قَوْمَهُمْ جَمِيعًا، فَيَرْضُونَ بِالذِّبَةِ، فَنُعْطِيهِمْ إِيَّاهَا.

فَاعْلَمَ اللَّهُ نَبِيَّهٖ ﷺ بِمَا أَرَادَ الْمُشْرِكُونَ، وَأَذِنَ لَهُ بِالْهَجْرَةِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ تَجَهَّزَ مِنْ قَبْلِ لِلْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى رَسْلِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي»، فَتَأَخَّرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِيُصْحَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَبَيْنَمَا نَحْنُ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ فِي مُتَصِفِ النَّهَارِ إِذَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْبَابِ مُتَقَنَّعًا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءُ لَهُ أَبِي وَأُمِّي! وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ. فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: «أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ». فَقَالَ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصُّحْبَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ». فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَخُذْ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بِالْثَمَنِ». ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، فَأَقَامَا فِي غَارِ جَبَلِ ثَوْرٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ، بَيَّتَ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ -وَكَانَ غُلَامًا شَابًّا ذَكِيًّا وَاعِيًا- فَيَنْطَلِقُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ إِلَى مَكَّةَ، فَيُصْبِحُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَا يَسْمَعُ بِخَيْرٍ حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ وَصَاحِبِهِ إِلَّا وَعَاهُ، حَتَّى يَأْتِي بِهِ إِلَيْهِمَا حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ^(١).

فَجَعَلَتْ قُرَيْشٌ تَطْلُبُ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، وَتَسْعَى بِكُلِّ وَسِيلَةٍ؛ لِيُذْرِكُوا النَّبِيَّ ﷺ، حَتَّى جَعَلُوا لِمَنْ يَأْتِي بِهِمَا أَوْ بِأَحَدِهِمَا دِيَّةً مِئَةً مِنَ الْإِبِلِ^(٢)، وَلَكِنَّ اللَّهَ كَانَ مَعَهُمَا، يَحْفَظُهُمَا بِعِنَايَتِهِ، وَيَرْعَاهُمَا بِرِعَايَتِهِ، حَتَّى إِنَّ قُرَيْشًا لَيَقْفُونَ عَلَى بَابِ الْغَارِ فَلَا يَرَوْنَهُمَا. قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا. فَقَالَ: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا، مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِأَنْتَيْنِ اللَّهُ تَالِيَهُمَا»^(٣).

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ، رقم (٣٩٠٥)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ، رقم (٣٩٠٦)، من حديث سراقه بن جعشم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، رقم (٣٦٥٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨١)، من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حَتَّى إِذَا سَكَنَ الطَّلُبُ عَنْهُمَا قَلِيلًا خَرَجَا مِنَ الْغَارِ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، مُتَّجِهِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى طَرِيقِ السَّاحِلِ.

وَلَمَّا سَمِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ بِخُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ كَانُوا يَخْرُجُونَ صَبَاحَ كُلِّ يَوْمٍ إِلَى الْحَرَّةِ، يَتَنَظَّرُونَ قُدُومَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبِهِ، حَتَّى يَطْرُدَهُمْ حَرُّ الشَّمْسِ.

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي قَدِمَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتَعَالَى النَّهَارُ، وَاشْتَدَّ الْحَرُّ، رَجَعُوا إِلَى بُيُوتِهِمْ، وَإِذَا رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى أُطْمٍ مِنْ أَطَامِ الْمَدِينَةِ يَنْظُرُ لِحَاجَةِ لَهُ، فَأَبْصَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ مُقْبِلِينَ، يُزُولُ بِهِمَا السَّرَابُ، فَلَمْ يَمْلِكْ أَنْ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ! هَذَا جَدُّكُمْ -يَعْنِي: هَذَا حَظُّكُمْ وَعِزُّكُمْ- الَّذِي تَتَنَظَّرُونَ.

فَهَبَ الْمُسْلِمُونَ لِلِقَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَعَهُمُ السَّلَاحُ؛ تَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِذَا نَا بِاسْتِعَادِهِمْ لِلْجِهَادِ وَالِدِّفَاعِ دُونَهُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَتَلَقَّوهُ ﷺ بِظَاهِرِ الْحَرَّةِ، فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ، وَنَزَلَ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ فِي قُبَاءٍ، وَأَقَامَ فِيهِمْ بِضْعَ لَيَالٍ، وَأَسَّسَ الْمَسْجِدَ.

ثُمَّ ارْتَحَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَالنَّاسُ مَعَهُ، وَآخَرُونَ يَتَلَقَّوْنَهُ فِي الطَّرَفَاتِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خَرَجَ النَّاسُ حِينَ قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فِي الطَّرِيقِ وَعَلَى الْبُيُوتِ، وَالْغِلْمَانُ وَالْحَدَمُ يَقُولُونَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ، اللَّهُ أَكْبَرُ، جَاءَ مُحَمَّدٌ^(١).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب في حديث الهجرة، رقم (٧٥ / ٢٠٠٩)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وانظر سيرة ابن هشام (١ / ٤٩٢).

وَالْهَجْرَةُ: الْإِنْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الْإِسْلَامِ^[١].

وَالْهَجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الْإِسْلَامِ^[١]، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝١٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٢١﴾ [النساء: ٩٧-٩٩].....

[١] الْهَجْرَةُ فِي اللُّغَةِ: «مَأْخُودَةٌ مِنَ الْهَجْرِ وَهُوَ التَّرْكُ».

وَأَمَّا فِي الشَّرْعِ فَهِيَ كَمَا قَالَ الشَّيْخُ: «الْإِنْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الْإِسْلَامِ». وَبَلَدُ الشِّرْكِ هُوَ الَّذِي تُقَامُ فِيهِا شَعَائِرُ الْكُفْرِ وَلَا تُقَامُ فِيهِ شَعَائِرُ الْإِسْلَامِ كَالْأَذَانِ، وَالصَّلَاةِ جَمَاعَةً، وَالْأَعْيَادِ، وَالْجُمُعَةِ عَلَى وَجْهِ عَامٍّ شَامِلٍ، وَإِنَّمَا قُلْنَا: «عَلَى وَجْهِ عَامٍّ شَامِلٍ» لِيُخْرَجَ مَا تُقَامُ فِيهِ هَذِهِ الشَّعَائِرُ عَلَى وَجْهِ مَحْضُورٍ كِبَلَادِ الْكُفَّارِ الَّتِي فِيهَا أَقَلِّيَّاتٌ مُسْلِمَةٌ؛ فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ بِلَادَ إِسْلَامٍ بِمَا تُقِيمُهُ الْأَقَلِّيَّاتُ الْمُسْلِمَةُ فِيهَا مِنْ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ، أَمَّا بِلَادُ الْإِسْلَامِ فَهِيَ الْبِلَادُ الَّتِي تُقَامُ فِيهَا هَذِهِ الشَّعَائِرُ عَلَى وَجْهِ عَامٍّ شَامِلٍ.

[١] فَهِيَ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ لَا يَسْتَطِيعُ إِظْهَارَ دِينِهِ فِي بَلَدِ الْكُفْرِ، فَلَا يَتِمُّ إِسْلَامُهُ إِذَا كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ إِظْهَارَهُ إِلَّا بِالْهَجْرَةِ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ.

[٢] فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَمْ يُهَاجِرُوا مَعَ قُدْرَتِهِمْ عَلَى الْهَجْرَةِ - أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَوَفَّاهُمْ وَتُوبِّخُهُمْ، وَتَقُولُ لَهُمْ: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]،
قَالَ الْبَغَوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ
لَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللَّهُ بِاسْمِ الْإِيمَانِ^[١].

وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهَجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ قَوْلُهُ ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ
التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^[٢].

أَمَّا الْعَاجِزُونَ عَنِ الْهَجْرَةِ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لِعَجْزِهِمْ عَنِ
الْهَجْرَةِ، وَلَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا.

[١] الظَّاهِرُ أَنَّ الشَّيْخَ رَحِمَهُ اللَّهُ نَقَلَ هَذَا عَنِ الْبَغَوِيِّ بِمَعْنَاهُ، هَذَا إِنْ كَانَ نَقَلَهُ
مِنَ التَّفْسِيرِ؛ إِذْ لَيْسَ الْمَذْكُورُ فِي تَفْسِيرِ الْبَغَوِيِّ^(١) هَذِهِ الْآيَةَ بِهَذَا اللَّفْظِ.

[٢] وَذَلِكَ حِينَ انْتِهَاءِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ الْمَقْبُولِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ
ءَايَتِي رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾
[الأنعام: ١٥٨] وَالْمُرَادُ بِبَعْضِ الْآيَاتِ هُنَا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا.

(تَبَيَّنَتْ) نَذَكُرُ هُنَا حُكْمَ السَّفَرِ إِلَى بِلَادِ الْكُفْرِ.

فَنَقُولُ: السَّفَرُ إِلَى بِلَادِ الْكُفْرِ لَا يَجُوزُ إِلَّا بِثَلَاثَةِ شُرُوطٍ:

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ عِنْدَ الْإِنْسَانِ عِلْمٌ يَدْفَعُ بِهِ الشُّبُهَاتِ.

الشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ دِينٌ يَمْنَعُهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ.

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ مُحْتَاجًا إِلَى ذَلِكَ.

(١) انظر: تفسير البغوي (٦/ ٢٥١).



فَإِنْ لَمْ تَتَمَّ هَذِهِ الشُّرُوطُ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ السَّفَرُ إِلَى بِلَادِ الْكُفَّارِ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ أَوْ خَوْفِ الْفِتْنَةِ، وَفِيهِ إِضَاعَةُ الْمَالِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُنْفِقُ أَمْوَالًا كَثِيرَةً فِي هَذِهِ الْأَسْفَارِ.

أَمَّا إِذَا دَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَى ذَلِكَ لِإِعْلَاجِ أَوْ تَلْقَى عِلْمٌ لَا يُوجَدُ فِي بَلَدِهِ، وَكَانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ وَدِينٌ عَلَى مَا وَصَفْنَا، فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ.

وَأَمَّا السَّفَرُ لِلْسِّيَاحَةِ فِي بِلَادِ الْكُفَّارِ فَهَذَا لَيْسَ بِحَاجَةٍ، وَبِمِإمكانِهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى بِلَادِ إِسْلَامِيَّةٍ، يُحَافِظُ أَهْلَهَا عَلَى شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ، وَبِلَادُنَا الْآنَ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - أَصْبَحَتْ بِلَادًا سِيَاحِيَّةً فِي بَعْضِ الْمَنَاطِقِ، فَبِمِإمكانِهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَيْهَا، وَيَقْضِيَ زَمَنَ إِجَارَتِهِ فِيهَا.

وَأَمَّا الْإِقَامَةُ فِي بِلَادِ الْكُفَّارِ فَإِنَّ خَطَرَهَا عَظِيمٌ عَلَى دِينِ الْمُسْلِمِ، وَأَخْلَافِهِ، وَسُلُوكِهِ، وَأَدَابِهِ، وَقَدْ شَاهَدْنَا وَغَيْرُنَا انْحِرَافَ كَثِيرٍ مِمَّنْ أَقَامُوا هُنَاكَ، فَرَجَعُوا بِغَيْرِ مَا ذَهَبُوا بِهِ، رَجَعُوا فُسَاقًا، وَبَعْضُهُمْ رَجَعَ مُرْتَدًّا عَنْ دِينِهِ وَكَافِرًا بِهِ وَبِسَائِرِ الْأَدْيَانِ - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - حَتَّى صَارُوا إِلَى الْجُحُودِ الْمُطْلَقِ، وَالِاسْتِهْزَاءِ بِالْدِّينِ وَأَهْلِهِ، السَّابِقِينَ مِنْهُمْ وَاللَّاحِقِينَ؛ وَهَذَا كَانَ يَنْبَغِي - بَلْ يَتَعَيَّنُ - التَّحْفُظُ مِنْ ذَلِكَ، وَوَضْعُ الشُّرُوطِ الَّتِي تَمْنَعُ مِنَ الْهُوِيِّ فِي تِلْكَ الْمَهَالِكِ.

فَالْإِقَامَةُ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ شَرْطَيْنِ أَسَاسِيَيْنِ:

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: أَمْنُ الْمُقِيمِ عَلَى دِينِهِ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، وَقُوَّةِ الْعَزِيمَةِ مَا يُطْمَئِنُّهُ عَلَى الثَّبَاتِ عَلَى دِينِهِ، وَالْحَدَرِ مِنَ الْإِنْحِرَافِ وَالزَّيْغِ، وَأَنْ يَكُونَ مُضْمِرًا لِعَدَاوَةِ الْكَافِرِينَ وَبُغْضِهِمْ، مُبْتَعِدًا عَنْ مُوَالَاتِهِمْ وَمَحَبَّتِهِمْ؛ فَإِنَّ مُوَالَاتِهِمْ وَمَحَبَّتَهُمْ مِمَّا يُنَافِي الْإِيمَانَ بِاللَّهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسِرُّونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَذِيبِينَ﴾ [المائدة: ٥١-٥٢].

وَبُتِيَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُمْ»، و«أَنَّ الْمَرْءَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»^(١).

وَمَحَبَّةُ أَعْدَاءِ اللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَكُونُ خَطَرًا عَلَى الْمُسْلِمِ؛ لِأَنَّ مُحَبَّتَهُمْ تَسْتَلْزِمُ مُوَافَقَتَهُمْ وَاتِّبَاعَهُمْ، أَوْ عَلَى الْأَقْلِ عَدَمَ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُمْ».

الشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ يَتِمَّكَنَ مِنْ إِظْهَارِ دِينِهِ بِحَيْثُ يَقُومُ بِشَعَائِرِ الْإِسْلَامِ بِدُونِ مُنَاجِعٍ، فَلَا يُمْنَعُ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَالْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَاتِ إِنْ كَانَ مَعَهُ مَنْ يُصَلِّي جَمَاعَةً وَمَنْ يُقِيمُ الْجُمُعَةَ، وَلَا يُمْنَعُ مِنَ الزَّكَاةِ وَالصَّيَامِ وَالْحَجِّ وَغَيْرِهَا مِنْ شَعَائِرِ الدِّينِ، فَإِنْ كَانَ لَا يَتِمَّكَنُ مِنْ ذَلِكَ لَمْ تَحْزِ الْإِقَامَةُ؛ لَوْجُوبِ الْهَجْرَةِ حِينَئِذٍ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب علامة حب الله عز وجل، رقم (٦١٦٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، رقم (٢٦٤٠)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، بلفظ: «المرء مع من أحب».

قَالَ فِي (المُغْنِي) ص ٤٥٧ ج ٨ فِي الْكَلَامِ عَلَى أَقْسَامِ النَّاسِ فِي الْهِجْرَةِ: أَحَدُهَا مَنْ تَجِبُ عَلَيْهِ وَهُوَ مَنْ يَقْدَرُ عَلَيْهَا وَلَا يُمَكِّنُهُ إِظْهَارُ دِينِهِ، وَلَا تُمَكِّنُهُ مِنْ إِقَامَةِ وَاجِبَاتِ دِينِهِ مَعَ الْمَقَامِ بَيْنَ الْكُفَّارِ، فَهَذَا تَجِبُ عَلَيْهِ الْهِجْرَةُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفُلُكِيَّةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُتَضَاعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

وَهَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ يَدُلُّ عَلَى الْوُجُوبِ، وَلَئِنْ الْقِيَامَ بِوَاجِبِ دِينِهِ وَاجِبٌ عَلَى مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ، وَالْهِجْرَةُ مِنْ ضَرُورَةِ الْوَاجِبِ وَتَتِمَّتِهِ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ. اهـ

وَبَعْدَ تَمَامِ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ الْأَسَاسِيَيْنِ تَنْقَسِمُ الْإِقَامَةُ فِي دَارِ الْكُفَّارِ إِلَى أَقْسَامٍ:

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: أَنْ يُقِيمَ لِلدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَالتَّرْغِيبِ فِيهِ، فَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الْجِهَادِ، فَهِيَ فَرَضٌ كِفَايَةٌ عَلَى مَنْ قَدَرَ عَلَيْهَا، بِشَرْطِ أَنْ تَتَحَقَّقَ الدَّعْوَةُ، وَأَنْ لَا يُوجَدَ مَنْ يَمْنَعُ مِنْهَا، أَوْ مِنَ الْإِسْتِجَابَةِ إِلَيْهَا؛ لِأَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الْإِسْلَامِ مِنْ وَاجِبَاتِ الدِّينِ، وَهِيَ طَرِيقَةُ الْمُرْسَلِينَ، وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالتَّبْلِغِ عَنْهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، فَقَالَ ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»^(١).

الْقِسْمُ الثَّانِي: أَنْ يُقِيمَ لِدِرَاسَةِ أَحْوَالِ الْكَافِرِينَ وَالتَّعَرُّفِ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ فَسَادِ الْعَقِيدَةِ، وَبُطْلَانِ التَّعَبُّدِ، وَانْحِلَالِ الْأَخْلَاقِ، وَفَوْضُويَّةِ السُّلُوكِ؛ لِيُحَذِّرَ النَّاسَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٦١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مِنَ الْإِغْتِرَارِ بِهِمْ، وَبَيَّنَّ لِلْمُعْجِبِينَ بِهِمْ حَقِيقَةَ حَالِهِمْ، وَهَذِهِ الْإِقَامَةُ نَوْعٌ مِنَ الْجِهَادِ أَيْضًا؛ لِمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ التَّحْذِيرِ مِنَ الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ، الْمُتَضَمِّنِ لِلتَّرْغِيبِ فِي الْإِسْلَامِ وَهَدْيِهِ؛ لِأَنَّ فَسَادَ الْكُفْرِ دَلِيلٌ عَلَى صَلَاحِ الْإِسْلَامِ، كَمَا قِيلَ: وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الْأَشْيَاءُ.

لَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ شَرْطٍ: أَنْ يَتَحَقَّقَ مُرَادُهُ بِدُونِ مَفْسَدَةٍ أَعْظَمَ مِنْهُ، فَإِنْ لَمْ يَتَحَقَّقْ مُرَادُهُ بِأَنْ مُنِعَ مِنْ نَشْرِ مَا هُمْ عَلَيْهِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْهُ فَلَا فَائِدَةَ مِنْ إِقَامَتِهِ.

وَأِنْ تَحَقَّقَ مُرَادُهُ مَعَ مَفْسَدَةٍ أَعْظَمَ مِثْلَ أَنْ يُقَابِلُوا فِعْلُهُ سَبَبَ الْإِسْلَامِ، وَرَسُولِ الْإِسْلَامِ، وَأَئِمَّةَ الْإِسْلَامِ - وَجَبَ الْكَفُّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وَيُشَبِّهُ هَذَا أَنْ يُقِيمَ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ؛ لِيَكُونَ عَيْنًا لِلْمُسْلِمِينَ؛ لِيَعْرِفَ مَا يُدْبِرُوهُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَكَائِدِ فَيَحْذَرَهُمُ الْمُسْلِمُونَ، كَمَا أَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ إِلَى الْمَشْرِكِينَ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ لِيَعْرِفَ خَبَرَهُمْ^(١).

الْقِسْمُ الثَّالِثُ: أَنْ يُقِيمَ لِحَاجَةِ الدَّوْلَةِ الْمُسْلِمَةِ وَتَنْظِيمِ عِلَاقَاتِهَا مَعَ دُولِ الْكُفْرِ، كَمَوْظِفِي السَّفَارَاتِ، فَحُكْمُهَا حُكْمُ مَا أَقَامَ مِنْ أَجْلِهِ. فَالْمُلْحَقُ الثَّقَافِيُّ مِثْلًا يُقِيمُ لِيَرْعَى شُؤُونَ الطَّلَبَةِ، وَيُرَاقِبُهُمْ، وَيَحْمِلُهُمْ عَلَى التِّزَامِ دِينَ الْإِسْلَامِ وَأَخْلَاقِهِ وَأَدَابِهِ، فَيَحْصُلُ بِإِقَامَتِهِ مَصْلَحَةٌ كَبِيرَةٌ، وَيَنْدَرِي بِهَا شَرٌّ كَبِيرٌ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٧٨٨)، من حديث حذيفة ابن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

القِسْمُ الرَّابِعُ: أَنْ يُقِيمَ لِحَاجَةِ خَاصَّةٍ مُبَاحَةً كَالتِّجَارَةِ وَالْعِلَاجِ، فِتْبَاحُ الإِقَامَةِ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ، وَقَدْ نَصَّ أَهْلُ الْعِلْمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَلَى جَوَازِ دُخُولِ بِلَادِ الْكُفْرِ لِلتِّجَارَةِ، وَأَثَرُوا ذَلِكَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

القِسْمُ الْخَامِسُ: أَنْ يُقِيمَ لِلدِّرَاسَةِ وَهِيَ مِنْ جِنْسِ مَا قَبْلَهَا إِقَامَةُ لِحَاجَةٍ، لَكِنَّهَا أخطرُ مِنْهَا، وَأَشَدُّ فَتْكًا بِدِينِ الْمُقِيمِ وَأَخْلَاقِهِ، فَإِنَّ الطَّالِبَ يَشْعُرُ بِدُنُوِّ مَرْتَبَتِهِ وَعُلُوِّ مَرْتَبَةِ مُعَلِّمِهِ، فَيَحْصُلُ مِنْ ذَلِكَ تَعْظِيمُهُمْ، وَالِاقْتِنَاعُ بِآرَائِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ وَسَلُوكِهِمْ، فَيَقِلُّدُهُمْ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ عِصْمَتُهُ وَهُمْ قَلِيلٌ.

ثُمَّ إِنَّ الطَّالِبَ يَشْعُرُ بِحَاجَتِهِ إِلَى مُعَلِّمِهِ، فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى التَّوَدُّدِ إِلَيْهِ وَمُدَاهَنَتِهِ فِيمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِنْحِرَافِ وَالضَّلَالِ.

وَالطَّالِبُ فِي مَقَرِّ تَعَلُّمِهِ لَهُ زُمَلَاءُ يَتَّخِذُ مِنْهُمْ أَصْدِقَاءَ يُحِبُّهُمْ وَيَتَوَلَّاهُمْ، وَيَكْتَسِبُ مِنْهُمْ. وَمِنْ أَجْلِ خَطَرِ هَذَا الْقِسْمِ وَجَبَ التَّحَفُّظُ فِيهِ أَكْثَرَ مِمَّا قَبْلَهُ، فَيَشْتَرَطُ فِيهِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الشَّرْطَيْنِ الْأَسَاسِيَيْنِ شَرْطَانِ:

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ الطَّالِبُ عَلَى مُسْتَوَى كَبِيرٍ مِنَ النُّصُوجِ الْعَقْلِيِّ الَّذِي يُمَيِّزُ بِهِ بَيْنَ النَّافِعِ وَالضَّارِّ، وَيَنْظُرُ بِهِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ الْبَعِيدِ.

فَإَمَّا بَعَثُ الْأَحْدَاثِ (صِغَارِ السِّنِّ) وَذَوِي الْعُقُولِ الصَّغِيرَةِ فَهُوَ خَطَرٌ عَظِيمٌ عَلَى دِينِهِمْ، وَخُلُقِهِمْ، وَسَلُوكِهِمْ، ثُمَّ هُوَ خَطَرٌ عَلَى أُمَّتِهِمْ الَّتِي سَيَرْجِعُونَ إِلَيْهَا، وَيَنْفُثُونَ فِيهَا مِنَ السُّمُومِ الَّتِي نَهَلُوهَا مِنْ أَوْلِيكَ الْكُفَّارِ، كَمَا شَهِدَ وَيَشْهَدُ بِهِ الْوَاقِعُ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَوْلِيكُمْ الْمُبْعُوثِينَ رَجَعُوا بِغَيْرِ مَا ذَهَبُوا بِهِ، رَجَعُوا مُنْحَرِفِينَ فِي دِيَانَتِهِمْ، وَأَخْلَاقِهِمْ،

وَسُلُوكِهِمْ، وَحَصَلَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى مُجْتَمَعِهِمْ مِنَ الضَّرَرِ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ مَا هُوَ مَعْلُومٌ مُشَاهَدٌ، وَمَا مِثْلُ بَعْثِ هَؤُلَاءِ إِلَّا كَمَثَلِ تَقْدِيمِ النَّعَاجِ لِلْكِلَابِ الضَّارِيَةِ.

الشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ عِنْدَ الطَّالِبِ مِنْ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ مَا يَتِمَكَّنُ بِهِ مِنَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَمُقَارَعَةِ الْبَاطِلِ بِالْحَقِّ؛ لِئَلَّا يَنْخَدِعَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبَاطِلِ، فَيُظَنَّهُ حَقًّا، أَوْ يَلْتَبِسَ عَلَيْهِ، أَوْ يَعْجَزَ عَنْ دَفْعِهِ فَيَنْقَى حَيْرَانًا، أَوْ يَتَّبِعَ الْبَاطِلَ. وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي الْحَقَّ حَقًّا وَارْزُقْنِي اتِّبَاعَهُ، وَارْزُقْنِي الْبَاطِلَ بَاطِلًا وَارْزُقْنِي اجْتِنَابَهُ، وَلَا تَجْعَلْهُ مُلْتَبَسًا عَلَيَّ فَأُضِلَّ»^(١).

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ عِنْدَ الطَّالِبِ دِينَ يُحِمِّيهِ وَيَتَحَصَّنُ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ، فَضَعِيفُ الدِّينِ لَا يَسْلُمُ مَعَ الْإِقَامَةِ هُنَاكَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ؛ وَذَلِكَ لِقُوَّةِ الْمُهَاجِمِ، وَضَعْفِ الْمُقَاوِمِ، فَاسْتَبَابَ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ هُنَاكَ قُوَّةٌ وَكَثِيرَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ، فَإِذَا صَادَفَتْ مَحَلًّا ضَعِيفَ الْمُقَاوِمَةِ عَمِلَتْ عَمَلَهَا.

الشَّرْطُ الرَّابِعُ: أَنْ تَدْعُو الْحَاجَّةُ إِلَى الْعِلْمِ الَّذِي أَقَامَ مِنْ أَجْلِهِ، بِأَنْ يَكُونَ فِي تَعَلُّمِهِ مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَلَا يُوجَدَ لَهُ نَظِيرٌ فِي الْمَدَارِسِ فِي بِلَادِهِمْ، فَإِنْ كَانَ مِنْ فُضُولِ الْعِلْمِ الَّذِي لَا مَصْلَحَةَ فِيهِ لِلْمُسْلِمِينَ، أَوْ كَانَ فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ الْمَدَارِسِ نَظِيرُهُ لَمْ يَجْزِ أَنْ يُقِيمَ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ مِنْ أَجْلِهِ؛ لِمَا فِي الْإِقَامَةِ مِنَ الْخَطَرِ عَلَى الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ، وَإِضَاعَةِ الْأَمْوَالِ الْكَثِيرَةِ بِدُونِ فَائِدَةٍ.

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (٣/ ٣٦٩) بنحوه، وقال العراقي في تخریجه: لم أقف لأوله على أصل اهـ. و ذكره البهوتي في شرح منتهى الإرادات (٣/ ٤٩٧) عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا.

الْقِسْمُ السَّادِسُ: أَنْ يُقِيمَ لِلسَّكَنِ، وَهَذَا أخطرُ مِمَّا قَبْلَهُ وَأَعْظَمُ؛ لِمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَفَاسِدِ بِالِاخْتِلَاطِ النَّامِ بِأَهْلِ الْكُفْرِ، وَشُعُورِهِ بِأَنَّهُ مَوَاطِنٌ مُلتَزِمٌ بِمَا تَقْتَضِيهِ الْوَطَنِيَّةُ مِنْ مَوَدَّةٍ وَمُؤَالَاةٍ، وَتَكْثِيرِ لِسَوَادِ الْكُفَّارِ، وَيَتَرَبَّى أَهْلُهُ بَيْنَ أَهْلِ الْكُفْرِ، فَيَأْخُذُونَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ، وَرُبَّمَا قَلَّدُوهُمْ فِي الْعَقِيدَةِ وَالتَّعَبُّدِ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَهُوَ مِثْلُهُ»^(١). وَهَذَا الْحَدِيثُ وَإِنْ كَانَ ضَعِيفَ السَّنَدِ لَكِنْ لَهُ وَجْهَةٌ مِنَ النَّظَرِ؛ فَإِنَّ الْمَسَاكِنَةَ تَدْعُو إِلَى الْمَشَاكَلَةِ.

وَعَنْ قَيْسِ بْنِ حَازِمٍ، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهَرِ الْمُشْرِكِينَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِمَ؟ قَالَ: «لَا تَرَأَى نَارَاهُمَا»^(٢) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ.

وَأَكْثَرُ الرُّوَاةِ رَوَوْهُ مُرْسَلًا عَنْ قَيْسِ بْنِ حَازِمٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: سَمِعْتُ مُحَمَّدًا -يَعْنِي الْبُخَارِيَّ- يَقُولُ: الصَّحِيحُ حَدِيثُ قَيْسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، مُرْسَلٌ. اهـ.

وَكَيْفَ تَطِيبُ نَفْسُ مُؤْمِنٍ أَنْ يَسْكُنَ فِي بِلَادِ كُفَّارٍ، تُعْلَنُ فِيهَا شَعَائِرُ الْكُفْرِ، وَيَكُونُ الْحُكْمُ فِيهَا لِغَيْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَهُوَ يُشَاهِدُ ذَلِكَ بِعَيْنِهِ وَيَسْمَعُهُ بِأُذُنِهِ وَيَرْضَى بِهِ؟! بَلْ يَنْتَسِبُ إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ، وَيَسْكُنُ فِيهَا بِأَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ، وَيَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا كَمَا يَطْمَئِنُّ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب الإقامة بأرض الشرك، رقم (٢٧٨٧)، وعلقه الترمذي: كتاب السير، باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين، (١٥٦/٤)، من حديث سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود، رقم (٢٦٤٥)، والتِّرْمِذِيُّ: كتاب السير، باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين، رقم (١٦٠٤).

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالْمَدِينَةِ أَمَرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، مِثْلَ: الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ،
وَالْجِهَادِ، وَالْأَذَانِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ
الْإِسْلَامِ^[١]،

إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْخَطَرِ الْعَظِيمِ عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ فِي دِينِهِمْ
وَأَخْلَاقِهِمْ.

هَذَا مَا تَوَصَّلْنَا إِلَيْهِ فِي حُكْمِ الْإِقَامَةِ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ، نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا
لِلْحَقِّ وَالصَّوَابِ.

[١] يَقُولُ الْمُؤَلَّفُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: لَمَّا اسْتَقَرَّ -أَيُّ النَّبِيِّ ﷺ- فِي الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ
أَمَرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي مَكَّةَ دَعَا إِلَى التَّوْحِيدِ نَحْوَ عَشْرِ سِنِينَ، ثُمَّ بَعْدَ
ذَلِكَ فَرَضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْحَمْسُ فِي مَكَّةَ، ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَمْ تُفَرَضْ عَلَيْهِ
الزَّكَاةُ وَلَا الصِّيَامُ وَلَا الْحَجُّ وَلَا غَيْرُهَا مِنْ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ.

وَزَاحِرُ كَلَامِ الْمُؤَلَّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الزَّكَاةَ فَرَضَتْ أَصْلًا وَتَفْصِيلًا فِي الْمَدِينَةِ،
وَذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّ الزَّكَاةَ فَرَضَتْ أَوَّلًا فِي مَكَّةَ، لَكِنَّهَا لَمْ تُقَدَّرْ أَنْصَابُهَا
وَلَمْ يُقَدَّرِ الْوَاجِبُ فِيهَا، وَفِي الْمَدِينَةِ قُدِّرَتِ الْأَنْصَابُ، وَقُدِّرَ الْوَاجِبُ، وَاسْتَدَلَّ
هَؤُلَاءِ بِأَنَّهُ جَاءَتْ آيَاتُ تَوْجِبِ الزَّكَاةَ فِي سُورَةِ مَكِّيَّةٍ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ
الْأَنْعَامِ: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مِنْ حَقٍّ يَوْمَ حَصَادِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤١] وَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ فِي
أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿١٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥].

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: فَاسْتَقَرَّ الزَّكَاةُ، وَتَقَدَّرَ أَنْصَابُهَا، وَمَا يَجِبُ فِيهَا، وَبَيَّانُ مُسْتَحَقِّيهَا
-كَانَ فِي الْمَدِينَةِ، وَكَذَلِكَ الْأَذَانُ وَالْجُمُعَةُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْجَمَاعَةَ كَذَلِكَ لَمْ تُفَرَضْ إِلَّا فِي
الْمَدِينَةِ؛ لِأَنَّ الْأَذَانَ الَّذِي فِيهِ الدَّعْوَةُ لِلْجَمَاعَةِ فَرَضَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ.

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا تُوفِّي صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ^[١]

أَمَّا الزَّكَاةُ وَالصَّيَامُ فَقَدْ فُرِضَا فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَأَمَّا الْحَجُّ فَلَمْ يُفْرَضْ إِلَّا فِي السَّنَةِ الثَّاسِعَةِ عَلَى الْقَوْلِ الرَّاجِحِ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَذَلِكَ حِينَ كَانَتْ مَكَّةُ بِلَدِ إِسْلَامٍ بَعْدَ فَتْحِهَا فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرُهُمَا مِنَ الشَّعَائِرِ الظَّاهِرَةِ، كُلُّهَا فُرِضَتْ فِي الْمَدِينَةِ بَعْدَ اسْتِقْرَارِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهَا، وَإِقَامَةِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِيهَا.

[١] أَخَذَ - أَيِ النَّبِيِّ ﷺ - عَشْرَ سِنِينَ بَعْدَ هِجْرَتِهِ، فَلَمَّا أَكْمَلَ اللَّهُ بِهِ الدِّينَ، وَأَتَمَّ بِهِ النِّعْمَةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، اخْتَارَهُ اللَّهُ لِحَوَارِهِ وَاللَّحَاقِ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

فَابْتَدَأَ بِهِ الْمَرْضُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي آخِرِ شَهْرِ صَفَرٍ وَأَوَّلِ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ، فَخَرَجَ إِلَى النَّاسِ عَاصِبًا رَأْسَهُ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَشَهِدَ، وَكَانَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ اسْتَغْفَرَ لِلشُّهَدَاءِ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي أُحُدٍ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ خَيْرُهُ اللَّهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ» فَفَهِمَهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَبَكَى، وَقَالَ: يَا أُمِّي! نَفْدِيكَ بِأَبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، وَأَبْنَائِنَا، وَأَنْفُسِنَا، وَأَمْوَالِنَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ» ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ أَمَنَ النَّاسَ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا غَيْرَ رَبِّي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ خُلَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ»^(١) وَأَمَرَ أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد، رقم (٤٦٦)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب حد المريض أن يشهد الجماعة، رقم (٦٦٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر، رقم (٤١٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْإِثْنَيْنِ الثَّانِي عَشَرَ أَوْ الثَّلَاثَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ الْأَوَّلِ مِنْ السَّنَةِ الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ مِنَ الْهَجْرَةِ اخْتَارَهُ اللَّهُ لِحَوَارِهِ، فَلَمَّا نُزِلَ بِهِ جَعَلَ يُدْخِلُ يَدَهُ فِي مَاءٍ عِنْدَهُ وَيَمْسَحُ وَجْهَهُ وَيَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكْرَاتٍ» ثُمَّ شَخَّصَ بَصَرَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى»^(١).

فَتَوَفَّى ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَاضْطَرَبَّ النَّاسُ لِذَلِكَ، وَحَقَّ لَهُمْ أَنْ يَضْطَرِبُوا، حَتَّى جَاءَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ يَعْْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

فَاشْتَدَّ بُكَاءُ النَّاسِ، وَعَرَفُوا أَنَّهُ قَدْ مَاتَ^(٢)، فُغْسِلَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي ثِيَابِهِ تَكْرِيمًا لَهُ، ثُمَّ كُفِّنَ بِثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ -أَي: لِفَافٍ- بِيضٍ سَحُولِيَّةٍ، لَيْسَ فِيهَا قَمِيصٌ وَلَا عِمَامَةٌ^(٣)، وَصَلَّى النَّاسُ عَلَيْهِ أَرْسَالًا بِدُونِ إِمَامٍ^(٤)، ثُمَّ دُفِنَ لَيْلَةَ الْأَرْبَعَاءِ^(٥) بَعْدَ أَنْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ، رقم (٤٤٤٩)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب في فضل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٢٤٤٤)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً»، رقم (٣٦٦٧، ٣٦٦٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب الثياب البيض للكفن، رقم (١٢٦٤)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب في كفن الميت، رقم (٩٤١)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه ابن ماجه: كتاب الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ، رقم (١٦٢٨)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) أخرجه الإمام أحمد (١١٠/٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَدِينُهُ بَاقٍ، وَهَذَا دِينُهُ، لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ الْأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَرَهَا مِنْهُ، وَالْحَيْرُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ: التَّوْحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ. وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَرَ مِنْهُ: الشِّرْكَ، وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَيَأْبَاهُ. بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً^[١] وَافْتَرَضَ اللَّهُ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ: الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا اللَّهَ فَإِنِ رَأَيْتُمْ ظُلُمًا فَمَا يَكُونُ لَكُم مِّنْ شَيْءٍ فَعَلُوا بِهِ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وَأَكْمَلَ اللَّهُ بِهِ الدِّينَ، وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

تَمَّتْ مُبَايَعَةُ الْخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِهِ، فَعَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَتَمُّ التَّسْلِيمِ.

[١] بَعَثَهُ اللَّهُ - أَيُّ: أَرْسَلَهُ - إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، أَيُّ: جَمِيعًا.

[٢] فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى النَّاسِ جَمِيعًا، وَأَنَّ الَّذِي أَرْسَلَهُ لَهُمْ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَنْ بِيَدِهِ الْإِحْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُتَوَحِّدُ بِالْأُلُوهِيَّةِ، كَمَا هُوَ مُتَوَحِّدٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، ثُمَّ أَمَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آخِرِ الْآيَةِ أَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الرَّسُولِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، وَأَنْ نَتَّبِعَهُ، وَأَنَّ ذَلِكَ سَبَبٌ لِلْهُدَايَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ، هِدَايَةِ الْإِرْشَادِ، وَهِدَايَةِ التَّوْفِيقِ، فَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَسُولٌ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ، وَهُمْ الْإِنْسُ وَالْجَنُّ، وَسَمُّوا بِذَلِكَ؛ لِكثْرَةِ عَدَدِهِمْ.

[٣] أَيُّ أَنْ دِينُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَاقٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَا تُؤْفِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا وَقَدْ بَيَّنَّ لِلْأُمَّةِ جَمِيعَ مَا تَحْتَاجُهُ فِي جَمِيعِ شُؤُونِهَا، حَتَّى قَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا تَرَكَ النَّبِيُّ ﷺ طَائِرًا يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرْنَا مِنْهُ عِلْمًا»^(١).

وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ ﷺ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصَّمُونَ﴾^[١] [الزمر: ٣٠-٣١].....

وَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِسُلَيْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَلَّمَكُم نَبِيَّكُمْ حَتَّى الْخِرَاءَةَ - آدَابَ قَضَاءِ الْحَاجَةِ - قَالَ: «نَعَمْ، لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ بِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ، أَوْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقْلٍ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ عَظْمٍ»^(١).

فَالنَّبِيُّ ﷺ بَيَّنَّ كُلَّ الدِّينِ إِمَّا بِقَوْلِهِ، وَإِمَّا بِفِعْلِهِ، وَإِمَّا بِإِقْرَارِهِ ابْتِدَاءً أَوْ جَوَابًا عَنْ سُؤَالٍ، وَأَعْظَمُ مَا بَيَّنَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ التَّوْحِيدُ.

وَكُلُّ مَا أَمَرَ بِهِ فَهُوَ خَيْرٌ لِلْأُمَّةِ فِي مَعَادِهَا وَمَعَاشِهَا، وَكُلُّ مَا نَهَى عَنْهُ فَهُوَ شَرٌّ لِلْأُمَّةِ فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا، وَمَا يَجْهَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ وَيَدَّعِيهِ مِنْ ضَيِّقٍ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ لِحُلُلِ الْبَصِيرَةِ، وَقِلَّةِ الصَّبْرِ، وَضَعْفِ الدِّينِ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْقَاعِدَةَ الْعَامَّةَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ عَلَيْنَا فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ، وَأَنَّ الدِّينَ كُلَّهُ يُسَرُّ وَسُهُولَةٌ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦] فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى تَمَامِ نِعْمَتِهِ وَإِكْمَالِ دِينِهِ.

[١] فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَمَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ مَيِّتُونَ، وَأَنَّهُمْ سَيَخْتَصِمُونَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم (٢٦٢)، من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ^[١]، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنَّا خَلَقْنَكُمْ^[٢] وَمِنْهَا نُعِيدُكُمْ^[٣] وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾^[٤] [طه: ٥٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أُنَبِّئُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾^[٥] [نوح: ١٧-١٨].

وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمُجْزِيُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾^[٦] [النجم: ٣١]

[١] بَيَّنَّ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ أَنَّ النَّاسَ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ، يُبْعَثُهُمُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَحْيَاءً بَعْدَ مَوْتِهِمْ لِلْجَزَاءِ، وَهَذَا هُوَ النَّتِيجَةُ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ: أَنْ يَعْمَلَ الْإِنْسَانُ هَذَا الْيَوْمَ يَوْمَ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، الْيَوْمَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ أَحْوَالِهِ وَأَهْوَالِهِ مَا يَجْعَلُ الْقَلْبَ يُنِيبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَيَخْشَى هَذَا الْيَوْمَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝١٧ أَلَسَمَاءٌ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٧-١٨].

وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ إِشَارَةٌ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْبَعْثِ، وَاسْتَدَلَّ الشَّيْخُ لَهُ بِآيَتَيْنِ.

[٢] أَي: مِنَ الْأَرْضِ خَلَقْنَاكُمْ حِينَ خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ تُرَابٍ.

[٣] أَي: بِالدَّفْنِ بَعْدَ الْمَوْتِ.

[٤] أَي: بِالْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[٥] هَذِهِ الْآيَةُ مُوَافِقَةٌ تَمَامًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنَّا خَلَقْنَكُمْ وَمِنْهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ وَالآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَقَدْ أَبَدَى اللَّهُ عَزَّجَلَّ وَأَعَادَ فِي إِنْبَاتِ الْمَعَادِ؛ حَتَّى يُؤْمِنَ النَّاسُ بِذَلِكَ، وَيَزِدَادُوا إِيمَانًا، وَيَعْمَلُوا هَذَا الْيَوْمَ الْعَظِيمَ، الَّذِي نَسَّأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنا مِنَ الْعَامِلِينَ لَهُ، وَمِنَ السَّعْدَاءِ فِيهِ.

[٦] يَعْنِي أَنَّ النَّاسَ بَعْدَ الْبَعْثِ يُجَازَوْنَ وَيُحَاسَبُونَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ

وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ، وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^[١] [التغابن: ٧].

وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

فَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِئَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، فَضْلًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَامْتِنَانًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَهُوَ جَلَّ وَعَلَا قَدْ تَفَضَّلَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، ثُمَّ تَفَضَّلَ مَرَّةً أُخْرَىٰ بِالْجَزَاءِ عَلَيْهِ هَذَا الْجَزَاءُ الْوَاسِعَ الْكَثِيرَ، أَمَّا الْعَمَلُ السَّيِّئُ فَإِنَّ السَّيِّئَةَ بِمِثْلِهَا، لَا يُجَازَى الْإِنْسَانُ بِأَكْثَرِ مِنْهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠] وَهَذَا مِنْ كِمَالِ فَضْلِ اللَّهِ وَإِحْسَانِهِ.

ثُمَّ اسْتَدَلَّ الشَّيْخُ لِدَلِيلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ وَلَمْ يَقُلْ: بِالشَّوْأَى، كَمَا قَالَ: ﴿وَيُجْزَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ﴾.

[١] مَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ فَهُوَ كَافِرٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِبَارِعِينَ﴾^(٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٩-٣٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾^(١٠) الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ^(١١) وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ

مُعَذِّبٍ أُنِيمَ ﴿١٣﴾ إِذَا نُنُلِّي عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٨﴾ [المطففين: ١٠-١٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ وَلَقَايَةِ أُولَئِكَ يَسْأَلُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٣].

وَاسْتَدَلَّ الشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الْآيَةَ.
وَأَمَّا إِقْتِنَاعُ هَؤُلَاءِ الْمُنْكَرِينَ فَبِمَا يَأْتِي:

أَوَّلًا: أَنَّ أَمْرَ الْبَعْثِ تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ فِي الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ،
وَالشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَّةِ، وَتَلَقَّيْتُهُ أُمَمُهُمْ بِالْقَبُولِ، فَكَيْفَ تُنْكِرُونَهُ وَأَنْتُمْ تُصَدِّقُونَ بِمَا يُنْقَلُ
إِلَيْكُمْ عَنْ فِيلَسُوفٍ أَوْ صَاحِبِ مَبْدَأٍ أَوْ فِكْرَةٍ، وَإِنْ لَمْ يَبْلُغْ مَا بَلَغَهُ الْحَبْرُ عَنِ الْبَعْثِ
لَا فِي وَسِيلَةِ النَّقْلِ، وَلَا فِي شَهَادَةِ الْوَاقِعِ !!؟

ثَانِيًا: أَنَّ أَمْرَ الْبَعْثِ قَدْ شَهِدَ الْعَقْلُ بِإِمْكَانِهِ، وَذَلِكَ مِنْ وَجْهِ:

١- كُلُّ أَحَدٍ لَا يُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ مَخْلُوقًا بَعْدَ الْعَدَمِ، وَأَنَّهُ حَادِثٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ،
فَالَّذِي خَلَقَهُ وَأَحْدَثَهُ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ بِالْأَوَّلَى، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَمَا
بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

٢- كُلُّ أَحَدٍ لَا يُنْكِرُ عَظَمَةَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ لِكِبَرِهِمَا وَبَدِيحِ صَنَعَتِهِمَا، فَالَّذِي خَلَقَهُمَا قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ النَّاسِ وَإِعَادَتِهِمْ بِالْأُولَى.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُخْزِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ ﴿[يس: ٨١-٨٢].

٣- كُلُّ ذِي بَصَرٍ يُشَاهِدُ الْأَرْضَ مُجْدِبَةً مَيِّتَةَ النَّبَاتِ، فَإِذَا نَزَلَ الْمَطَرُ عَلَيْهَا أَخْضَبَتْ وَحَيَّى نَبَاتُهَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْقَادِرُ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَبَعْثِهِمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

ثَالِثًا: أَنَّ أَمْرَ الْبَعْثِ قَدْ شَهِدَ الْحِسُّ وَالْوَقَاعُ بِإِمْكَانِهِ فِيمَا أَخْبَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ وَقَائِعِ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ خَمْسَ حَوَادِثَ، مِنْهَا قَوْلُهُ: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وَأَرْسَلَ اللَّهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ ^[١] [النساء: ١٦٥].

رَابِعًا: أَنَّ الْحِكْمَةَ تَقْتَضِي الْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ؛ لِتُجَاوِزَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ خَلْقُ النَّاسِ عَبَثًا لَا قِيمَةَ لَهُ، وَلَا حِكْمَةَ مِنْهُ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ الْبَهَائِمِ فَرْقٌ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ^(١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿[المؤمنون: ١١٥-١١٦]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ^(٣٨) إِيَّيْنِ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿[النحل: ٣٨-٤٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ كُنَّا نُبْعَثُ قُلَّ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّ ثُمَّ لَنُنَبِّئَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

فَإِذَا بَيَّنَّتْ هَذِهِ الْبَرَاهِينُ لِمُنْكَرِي الْبَعْثِ، وَأَصْرُوا عَلَىٰ إِنْكَارِهِمْ، فَهُمْ مُكَابِرُونَ مُعَانِدُونَ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ.

[١] بَيَّنَّ الْمُؤَلِّفُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ يُبَشِّرُونَ مَنْ أَطَاعَهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَيُنْذِرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ بِالنَّارِ.

وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾^[١] [النساء: ١٦٣].

وَإِذَا سَأَلَ الرُّسُلَ لَهُ حِكْمٌ عَظِيمَةٌ مِنْ أَهْمِّهَا -بَلْ هُوَ أَهْمُّهَا- أَنْ تَقُومَ الْحُجَّةُ عَلَى النَّاسِ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ لَهُمْ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ إِرْسَالِ الرُّسُلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.

وَمِنْهَا أَنَّهُ مِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؛ فَإِنَّ الْعَقْلَ الْبَشَرِيَّ -مَهْمَا كَانَ- لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يُدْرِكَ تَفَاصِيلَ مَا يَجِبُ لِلَّهِ تَعَالَى مِنَ الْحَقُوقِ الْخَاصَّةِ بِهِ، وَلَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى مَا لِلَّهِ تَعَالَى مِنَ الصِّفَاتِ الْكَامِلَةِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى مَا لَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى؛ وَهَذَا أَرْسَلَ اللَّهُ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ؛ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ.

وَأَعْظَمُ مَا دَعَا إِلَيْهِ الرُّسُلُ -مِنْ أَوَّلِهِمْ نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى آخِرِهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ- التَّوْحِيدُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوعَ﴾ [النحل: ٣٦].

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

[١] بَيَّنَّ شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ أَوَّلَ الرُّسُلِ نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَاسْتَدَلَّ لِذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣] وَتَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: «أَنَّ النَّاسَ

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا رَسُولًا^(١) مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ، يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ، وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^[٢] [النحل: ٣٦].

وَأَفْتَرَضَ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ. قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- الطَّاغُوتُ: مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتَّبُوعٍ، أَوْ مُطَاعٍ^[٣]

يَأْتُونَ إِلَى نُوحٍ، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ^(١) فَلَا رَسُولَ قَبْلَ نُوحٍ، وَهَذَا نَعْلَمُ خَطَأَ الْمُؤَرِّخِينَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَبْلَ نُوحٍ، بَلِ الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ إِدْرِيسَ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَأَخِرُ الْأَنْبِيَاءِ وَخَاتَمُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿[الأحزاب: ٤٠]﴾ فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَمَنْ ادَّعَى النُّبُوَّةَ بَعْدَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ، كَافِرٌ، مُرْتَدٌّ عَنِ الْإِسْلَامِ.

[١] أَي: أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الشِّرْكِ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

[٢] هَذَا هُوَ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

[٣] أَرَادَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ بِهَذَا أَنَّ التَّوْحِيدَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَاجْتِنَابِ الطَّاغُوتِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾، رقم (٣٣٤٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَى عِبَادَةٍ، وَالطَّاعُونَ مُشْتَقُّ مِنَ الطُّغْيَانِ، وَالطُّغْيَانُ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] يَعْنِي: لَمَّا زَادَ الْمَاءُ عَنِ الْحَدِّ الْمُعْتَادِ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ، يَعْنِي السَّفِينَةَ.

وَاصْطِلَاحًا: أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي تَعْرِيفِهِ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ ^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ -أَيِ الطَّاعُونَ-: «كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ، أَوْ مَتَّبُوعٍ، أَوْ مُطَاعٍ» وَمُرَادُهُ بِالْمَعْبُودِ وَالْمَتَّبُوعِ وَالْمُطَاعِ غَيْرُ الصَّالِحِينَ، أَمَّا الصَّالِحُونَ فَلْيَسُوا طَوَاعِيَتَ وَإِنْ عُدُوا، أَوْ اتَّبَعُوا، أَوْ أُطِيعُوا.

فَالْأَصْنَافُ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ طَوَاعِيَتُ. وَعُلَمَاءُ الشُّعْرِ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الضَّلَالِ وَالْكُفْرِ، أَوْ يَدْعُونَ إِلَى الْبِدْعِ، أَوْ إِلَى تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، أَوْ تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ -طَوَاعِيَتُ. وَالَّذِينَ يُزَيِّنُونَ لَوْلَاةِ الْأَمْرِ الْخُرُوجَ عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ بِنُظْمٍ يَسْتَوِرُ دُونَهَا مُحَالِفَةٌ لِنُظْمِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ طَوَاعِيَتُ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ تَجَاوَزُوا حَدَّهُمْ، فَإِنَّ حَدَّ الْعَالَمِ أَنْ يَكُونَ مُتَّبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ حَقِيقَةَ وَرَثَةَ الْأَنْبِيَاءِ، يَرْتُونَهُمْ فِي أَمْتِهِمْ عُلَمَاءَ، وَعَمَلَاءَ، وَأَخْلَاقًا، وَدَعْوَةً، وَتَعْلِيمًا.

فَإِذَا تَجَاوَزُوا هَذَا الْحَدَّ، وَصَارُوا يُزَيِّنُونَ لِلْحُكَامِ الْخُرُوجَ عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ بِمِثْلِ هَذِهِ النُّظْمِ فَهُمْ طَوَاعِيَتُ؛ لِأَنَّهُمْ تَجَاوَزُوا مَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا عَلَيْهِ مِنْ مُتَابَعَةِ الشَّرِيعَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَوْ مُطَاعٍ» فَيُرِيدُ بِهِ الْأَمْرَاءَ الَّذِينَ يُطَاعُونَ شَرْعًا أَوْ قَدْرًا،

فَالْأَمْرَاءُ يُطَاعُونَ شَرْعًا إِذَا أَمَرُوا بِمَا لَا يُخَالِفُ أَمْرَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَفِي هَذِهِ الْحَالِ لَا يَصْدُقُ عَلَيْهِمْ أَتَمُّهُمْ طَوَاعِيَتْ، وَالْوَاجِبُ لَهُمْ عَلَى الرَّعِيَّةِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، وَطَاعَتُهُمْ لَوْلَاةِ الْأَمْرِ فِي هَذَا الْحَالِ بِهَذَا الْقَيْدِ طَاعَةٌ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ.

وَلِهَذَا يَنْبَغِي أَنْ نُلَاحِظَ حِينَ نُنْفِذُ مَا أَمَرَ بِهِ وَلِيُّ الْأَمْرِ مِمَّا تَحِبُّ طَاعَتُهُ فِيهِ أَنَّنَا فِي ذَلِكَ نَتَعَبَّدُ لِلَّهِ تَعَالَى وَنَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ؛ حَتَّى يَكُونَ تَنْفِيزُنَا هَذَا الْأَمْرَ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُلَاحِظَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وَأَمَّا طَاعَةُ الْأَمْرَاءِ قَدَرًا: فَإِنَّ الْأَمْرَاءَ إِذَا كَانُوا أَقْوِيَاءَ فِي سُلْطَتِهِمْ فَإِنَّ النَّاسَ يُطِيعُونَهُمْ بِقُوَّةِ السُّلْطَانِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِوَازِعِ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ طَاعَةَ وَلِيِّ الْأَمْرِ تَكُونُ بِوَازِعِ الْإِيمَانِ، وَهَذِهِ هِيَ الطَّاعَةُ النَّافِعَةُ، النَّافِعَةُ لَوْلَاةِ الْأَمْرِ، وَالنَّافِعَةُ لِلنَّاسِ أَيْضًا، وَقَدْ تَكُونُ الطَّاعَةُ بِوَازِعِ السُّلْطَانِ، بِحَيْثُ يَكُونُ قُوِيًّا يَخْشَى النَّاسُ مِنْهُ وَيَهَابُونَهُ؛ لِأَنَّهُ يُنْكَلُ بِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ.

وَلِهَذَا نَقُولُ: إِنَّ النَّاسَ مَعَ حُكَّامِهِمْ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لَهُمْ أَحْوَالٌ:

الْحَالُ الْأَوَّلَى: أَنْ يَقْوَى الْوَازِعُ الْإِيمَانِيَّ وَالرَّادِعُ السُّلْطَانِيَّ، وَهَذِهِ أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ وَأَعْلَاهَا.

الْحَالُ الثَّانِيَةُ: أَنْ يَضْعُفَ الْوَازِعُ الْإِيمَانِيَّ وَالرَّادِعُ السُّلْطَانِيَّ، وَهَذِهِ أَدْنَى الْأَحْوَالِ وَأَخْطَرُهَا عَلَى الْمُجْتَمَعِ، عَلَى حُكَّامِهِ وَمَحْكُومِيهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا ضَعُفَ الْوَازِعُ الْإِيمَانِيَّ وَالرَّادِعُ السُّلْطَانِيَّ حَصَلَتِ الْفَوْضَى الْفِكْرِيَّةُ وَالْخُلُقِيَّةُ وَالْعَمَلِيَّةُ.

وَالطَّوَاعِيَةُ^[١] كَثِيرَةٌ، وَرُؤُوسُهُمْ^[٢] خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ^[٣] لَعَنَهُ اللَّهُ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ^[٤]، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ^[٥]،

الْحَالُ الثَّالِثَةُ: أَنْ يَضْعُفَ الْوَازِعُ الْإِيمَانِي وَيَقْوَى الرَّادِعُ السُّلْطَانِي، وَهَذِهِ مَرْتَبَةٌ وَسَطَى؛ لِأَنَّهُ إِذَا قَوِيَ الرَّادِعُ السُّلْطَانِي صَارَ أَصْلَحَ لِلْأُمَّةِ فِي الْمَظْهَرِ، فَإِذَا اخْتَفَتْ قُوَّةُ السُّلْطَانِ فَلَا تَسْأَلُ عَنْ حَالِ الْأُمَّةِ وَسُوءَ عَمَلِهَا.

الْحَالُ الرَّابِعَةُ: أَنْ يَقْوَى الْوَازِعُ الْإِيمَانِي وَيَضْعُفَ الرَّادِعُ السُّلْطَانِي، فَيَكُونُ الْمَظْهَرُ أَذْنَى مِنْهُ فِي الْحَالِ الثَّالِثَةِ، لَكِنَّهُ فِيمَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَرَبِّهِ أَكْمَلُ وَأَعْلَى.

[١] جَمْعُ طَاعُوتٍ، وَسَبَقَ تَفْسِيرُهُ.

[٢] أَيُّ: زُعَمَاؤُهُمْ وَمُقَلِّدُوهُمْ خَمْسَةٌ.

[٣] إِبْلِيسُ: هُوَ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ اللَّعِينُ، الَّذِي قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٨] وَكَانَ إِبْلِيسُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ فِي صُحْبَتِهِمْ، يَعْمَلُ بِعَمَلِهِمْ، وَلَمَّا أَمَرَ بِالسُّجُودِ لِأَدَمَ ظَهَرَ مَا فِيهِ مِنَ الْخُبْثِ وَالْإِبَاءِ وَالِاسْتِكْبَارِ، فَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، فَطَرِدَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

[٤] أَيُّ: عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهُوَ رَاضٍ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ مِنْ رُؤُوسِ الطَّوَاعِيَةِ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- وَسَوَاءٌ عُبِدَ فِي حَيَاتِهِ أَوْ بَعْدَ مَمَاتِهِ إِذَا مَاتَ وَهُوَ رَاضٍ بِذَلِكَ.

[٥] أَيُّ: مَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ وَإِنْ لَمْ يَعْبُدُوهُ فَإِنَّهُ مِنْ رُؤُوسِ الطَّوَاعِيَةِ، سَوَاءٌ أُجِيبَ لِمَا دَعَا إِلَيْهِ أَمْ لَمْ يُجِبْ.

وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ^[١]، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ^[٢].....

[١] الْغَيْبُ مَا غَابَ عَنِ الْإِنْسَانِ، وَهُوَ نَوْعَانِ:

وَاقِعٌ، وَمُسْتَقْبَلٌ، فَغَيْبُ الْوَاقِعِ نِسْبِيٌّ، يَكُونُ لِشَخْصٍ مَعْلُومًا وَلَا خَرَ مَجْهُولًا، وَغَيْبُ الْمُسْتَقْبَلِ حَقِيقِيٌّ، لَا يَكُونُ مَعْلُومًا لِأَحَدٍ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، أَوْ مَنْ أَطْلَعَهُ عَلَيْهِ مِنَ الرُّسُلِ، فَمَنْ ادَّعَى عِلْمَهُ فَهُوَ كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ مُكَذِّبٌ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ وَلِرَسُولِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

وَإِذَا كَانَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ يَأْمُرُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يُغْلِنَ لِلْمَلَائِكَةِ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ مَنْ ادَّعَى عِلْمَ الْغَيْبِ فَقَدْ كَذَّبَ اللَّهَ عَزَّجَلَّ وَرَسُولَهُ فِي هَذَا الْخَبَرِ.

وَنَقُولُ هُؤُلَاءِ: كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ تَعْلَمُوا الْغَيْبَ وَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ؟! هَلْ أَنْتُمْ أَشْرَفُ أَمِ الرُّسُولُ ﷺ؟! فَإِنْ قَالُوا: نَحْنُ أَشْرَفُ مِنَ الرُّسُولِ، كَفَرُوا بِهَذَا الْقَوْلِ، وَإِنْ قَالُوا: هُوَ أَشْرَفُ، فَنَقُولُ: لِمَاذَا يُجْجَبُ عَنْهُ الْغَيْبُ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَهُ؟!

وَقَدْ قَالَ عَزَّجَلَّ عَنْ نَفْسِهِ: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] وَهَذِهِ آيَةُ ثَانِيَةٌ تَدُلُّ عَلَى كُفْرِ مَنْ ادَّعَى عِلْمَ الْغَيْبِ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُغْلِنَ لِلْمَلَائِكَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۚ إِن أَنْتَبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

[٢] الْحُكْمُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ تَنْفِيدُ لِحُكْمِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ مُقْتَضَى رُبُوبِيَّتِهِ، وَكَمَالِ مُلْكِهِ وَتَصَرُّفِهِ؛ وَلِهَذَا سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الْمُتَّبِعِينَ فِي غَيْرِ مَا أَنْزَلَ

اللَّهُ تَعَالَى أَرْبَابًا لِّتَبَعِهِمْ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

فَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الْمُتَّبِعِينَ أَرْبَابًا؛ حَيْثُ جُعِلُوا مُشْرَعِينَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، وَسَمَّى الْمُتَّبِعِينَ عِبَادًا؛ حَيْثُ إِتَمَّ ذُلُّو لَهُمْ وَأَطَاعُوهُمْ فِي مُخَالَفَةِ حُكْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَقَدْ قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلْ إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، وَأَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ، فَاتَّبَعُوهُمْ، فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ»^(١).

إِذَا فَهَمْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَأَرَادَ أَنْ يَكُونَ التَّحَاكُمُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَرَدَّتْ فِيهِ آيَاتُ بِنْفِي الْإِيمَانِ عَنْهُ، وَآيَاتُ كُفْرِهِ، وَظُلْمِهِ، وَفِسْقِهِ.

فَأَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ:

فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾^(١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّقِينَ يُصْذَوْنَ عَنْكَ صُدُودًا^(١١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَنًا وَتَوْفِيقًا^(١٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا^(١٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب التفسير، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٩٥).

إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ [النساء: ٦٥-٦٥].

فَوَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى هَؤُلَاءِ الْمُدَّعِينَ لِلْإِيمَانِ وَهُمْ مُنَافِقُونَ بِصِفَاتٍ:

الأولى: أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَكُونَ التَّحَاكُمُ إِلَى الطَّاغُوتِ، وَهُوَ كُلُّ مَا خَالَفَ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ﷺ؛ لِأَنَّ مَا خَالَفَ حُكْمَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهُوَ طُغْيَانٌ وَاعْتِدَاءٌ عَلَى حُكْمٍ مِنْ لَهُ الْحُكْمُ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ وَهُوَ اللَّهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤].

الثَّانِيَةُ: أَنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ صَدُّوا وَأَعْرَضُوا.

الثَّالِثَةُ: أَنَّهُمْ إِذَا أُصِيبُوا بِمُصِيبَةٍ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ -وَمِنْهَا أَنْ يُعْتَرِ عَلَى صَنِيعِهِمْ- جَاءُوا وَيَخْلِفُونَ أَنَّهُمْ مَا أَرَادُوا إِلَّا الْإِحْسَانَ وَالتَّوْفِيقَ، كَحَالِ مَنْ يَرْفُضُ الْيَوْمَ أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ، وَيَحْكُمُ بِالْقَوَانِينِ الْمُخَالِفَةِ لَهَا؛ زَعْمًا مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْإِحْسَانُ الْمُوَافِقُ لِأَحْوَالِ الْعَصْرِ.

ثُمَّ حَدَّرَ -سُبْحَانَهُ- هَؤُلَاءِ الْمُدَّعِينَ لِلْإِيمَانِ، الْمُتَّصِفِينَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ بِأَنَّهُ -سُبْحَانَهُ- يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ وَمَا يُكِنُّونَهُ مِنْ أُمُورٍ تُخَالِفُ مَا يَقُولُونَ، وَأَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يُعْظِمَهُمْ، وَيَقُولَ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا.

ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ الْحِكْمَةَ مِنْ إِرْسَالِ الرَّسُولِ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُطَاعَ الْمَتَّبِعَ لَا غَيْرُهُ مِنَ النَّاسِ، مَهْمَا قَوِيَتْ أَفْكَارُهُمْ، وَاتَّسَعَتْ مَدَارِكُهُمْ، ثُمَّ أَقْسَمَ تَعَالَى بِرُبُوبِيَّتِهِ لِرَسُولِهِ النَّبِيِّ

هِيَ أَخَصُّ أَنْوَاعِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالَّتِي تَتَضَمَّنُ الْإِشَارَةَ إِلَى صِحَّةِ رِسَالَتِهِ ﷺ، أَقْسَمَ بِهَا قَسَمًا مُؤَكَّدًا أَنَّهُ لَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ التَّحَاكُمُ فِي كُلِّ نِزَاعٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثَّانِي: أَنْ تَنْشَرَحَ الصُّدُورُ بِحُكْمِهِ، وَلَا يَكُونَ فِي النُّفُوسِ حَرَجٌ وَضِيقٌ مِنْهُ.

الثَّالِثُ: أَنْ يَخْصَلَ التَّسْلِيمُ بِقَبُولِ مَا حَكَمَ بِهِ، وَتَنْفِيذِهِ بِدُونِ تَوَانٍ أَوْ انْجِرَافٍ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي:

فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

وَهَلْ هَذِهِ الْأَوْصَافُ الثَّلَاثَةُ تَنْزَّلُ عَلَى مَوْصُوفٍ وَاحِدٍ؟ بِمَعْنَى أَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَهُوَ كَافِرٌ ظَالِمٌ فَاسِقٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَ الْكَافِرِينَ بِالظُّلْمِ وَالْفُسْقِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَانُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].

فَكُلُّ كَافِرٍ ظَالِمٌ فَاسِقٌ، أَوْ هَذِهِ الْأَوْصَافُ تَنْزَّلُ عَلَى مَوْصُوفَيْنِ بِحَسَبِ الْحَامِلِ لَهُمْ عَلَى عَدَمِ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ؟ هَذَا هُوَ الْأَقْرَبُ عِنْدِي. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَنَقُولُ: مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ اسْتَحْقَافًا بِهِ، أَوْ احْتِقَارًا، أَوْ اعْتِقَادًا أَنَّ غَيْرَهُ أَصْلَحُ مِنْهُ وَأَنْفَعُ لِلْخَلْقِ، أَوْ مِثْلُهُ - فَهُوَ كَافِرٌ كُفْرًا مُخْرِجًا عَنِ الْمِلَّةِ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ

يَضَعُونَ لِلنَّاسِ تَشْرِيعَاتٍ تُخَالَفُ التَّشْرِيعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةَ؛ لِتَكُونَ مِنْهَا جَا يَسِيرُ النَّاسُ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَضَعُوا تِلْكَ التَّشْرِيعَاتِ الْمُخَالَفَةَ لِلشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَّا وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا أَصْلَحُ وَأَنْفَعُ لِلخَلْقِ؛ إِذْ مِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ الْعَقْلِيَّةِ، وَالْجِبِلَّةِ الْفِطْرِيَّةِ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَعْدِلُ عَنْ مِنْهَا جٍ إِلَى مِنْهَا جٍ يُخَالَفُهُ إِلَّا وَهُوَ يَعْتَقِدُ فَضْلَ مَا عَدَلَ إِلَيْهِ وَنَقْصَ مَا عَدَلَ عَنْهُ.

وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَهُوَ لَمْ يَسْتَخِفْ بِهِ، وَلَمْ يَحْتَقِرْهُ، وَلَمْ يَعْتَقِدْ أَنَّ غَيْرَهُ أَصْلَحُ مِنْهُ لِنَفْسِهِ، أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ - فَهَذَا ظَالِمٌ وَلَيْسَ بِكَافِرٍ. وَتُخْتَلَفُ مَرَاتِبُ ظُلْمِهِ بِحَسَبِ الْمَحْكُومِ بِهِ وَوَسَائِلِ الْحُكْمِ.

وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَا اسْتِخْفَافًا بِحُكْمِ اللَّهِ، وَلَا احْتِقَارًا، وَلَا اعْتِقَادًا أَنَّ غَيْرَهُ أَصْلَحُ، وَأَنْفَعُ لِلخَلْقِ، أَوْ مِثْلُهُ، وَإِنَّمَا حَكَمَ بِغَيْرِهِ مُحَابَاةً لِلْمَحْكُومِ لَهُ، أَوْ مُرَاعَاةً لِرِشْوَةٍ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا فَهَذَا فَاسِقٌ، وَلَيْسَ بِكَافِرٍ، وَتُخْتَلَفُ مَرَاتِبُ فِسْقِهِ بِحَسَبِ الْمَحْكُومِ بِهِ وَوَسَائِلِ الْحُكْمِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ فَيَمَنْ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ: إِنَّهُمْ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ بَدَّلُوا دِينَ اللَّهِ، فَيَتَّبِعُونَهُمْ عَلَى التَّبْدِيلِ، وَيَعْتَقِدُونَ تَحْلِيلَ مَا حَرَّمَ، وَتَحْرِيمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ؛ اتِّبَاعًا لِرُؤَسَائِهِمْ، مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ خَالَفُوا دِينَ الرُّسُلِ - فَهَذَا كُفْرٌ، وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ شَرْكًَا.

وَالدَّلِيلُ ^[١] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ^[٢] قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ اعْتِقَادُهُمْ وَإِيمَانُهُمْ بِتَحْلِيلِ الْحَرَامِ وَتَحْرِيمِ الْحَلَالِ - كَذَا الْعِبَارَةُ الْمُنْقُولَةُ عَنْهُ - ثَابِتًا، لَكِنَّهُمْ أَطَاعُوهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، كَمَا يَفْعَلُ الْمُسْلِمُ مَا يَفْعَلُهُ مِنَ الْمَعَاصِي الَّتِي يَعْتَقِدُ أَنَّهَا مَعَاصٍ، فَهَؤُلَاءِ لَهُمْ حُكْمُ أَمْثَلِهِمْ مِنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ.

وَهُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي تُعْتَبَرُ تَشْرِيعًا عَامًّا وَالْمَسْأَلَةِ الْمُعَيَّنَةِ الَّتِي يَحْكُمُ فِيهَا الْقَاضِي بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ؛ لِأَنَّ الْمَسَائِلَ الَّتِي تُعْتَبَرُ تَشْرِيعًا عَامًّا لَا يَتَأْتِي فِيهَا التَّقْسِيمُ السَّابِقُ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ فَقَطْ؛ لِأَنَّ هَذَا الْمَشْرَعُ تَشْرِيعًا يُخَالِفُ الْإِسْلَامَ إِنَّمَا شَرَعَهُ لِاعْتِقَادِهِ أَنَّهُ أَصْلَحُ مِنَ الْإِسْلَامِ وَأَنْفَعُ لِلْعِبَادِ، كَمَا سَبَقَتْ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ.

وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ - أَعْنِي مَسْأَلَةَ الْحُكْمِ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ - مِنَ الْمَسَائِلِ الْكُبْرَى، الَّتِي ابْتَدِئَ بِهَا حُكَّامُ هَذَا الزَّمَانِ، فَعَلَى الْمَرْءِ أَنْ لَا يَتَسَرَّعَ فِي الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ بِمَا لَا يَسْتَحِقُّونَهُ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ؛ لِأَنَّ الْمَسْأَلَةَ خَطِيرَةٌ - نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُصْلِحَ لِلْمُسْلِمِينَ وُلاَةَ أُمُورِهِمْ وَبِطَانَتَهُمْ - كَمَا أَنَّ عَلَى الْمَرْءِ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ الْعِلْمَ أَنْ يُبَيِّنَهُ هَؤُلَاءِ الْحُكَّامَ؛ لِقُومِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَتَبَيَّنَ الْمَحَجَّةُ فِيهِلَكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَلَا يَحْقِرَنَّ نَفْسُهُ عَنْ بَيَانِهِ، وَلَا يَهَابَنَّ أَحَدًا فِيهِ؛ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ.

[١] أَي: عَلَى وَجُوبِ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَالْكَفْرِ بِالطَّاعُوتِ.

[٢] لَا إِكْرَاهَ عَلَى الدِّينِ؛ لِظُهُورِ أَدْلَتِهِ وَبَيَانِهَا وَوُضُوحِهَا؛ وَهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ فَإِذَا تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَإِنَّ كُلَّ نَفْسٍ سَلِيمَةٍ لَا بُدَّ أَنْ تَخْتَارَ الرُّشْدَ عَلَى الْغَيِّ.

فَمَنْ يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ ^[١] فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ^[٢]
[البقرة: ٢٥٦]، وَهَذَا مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

وَفِي الْحَدِيثِ «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ» ^[٣] وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ ^[٤] وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ
الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ^[٥].

[١] بَدَأَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ بِالْكَفْرِ بِالطَّاغُوتِ قَبْلَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ؛ لِأَنَّ مِنْ كَمَالِ الشَّيْءِ
إِزَالَةُ الْمَوَانِعِ قَبْلَ وُجُودِ الثَّوَابِ؛ وَهَذَا يُقَالُ: التَّخْلِيَةُ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ.

[٢] أَيُّ: تَمَسَّكَ بِهَا تَمَسُّكًا تَامًّا، وَالْعُرْوَةُ الْوُثْقَى هِيَ الْإِسْلَامُ، وَتَأَمَّلْ كَيْفَ قَالَ
عَزَّجَلَّ: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: «تَمَسَّكَ» لِأَنَّ الْإِسْتِمْسَاكَ أَقْوَى مِنَ التَّمَسُّكِ؛
فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَتَمَسَّكَ وَلَا يَسْتَمْسِكُ.

[٣] أَرَادَ الْمُؤَلِّفُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- الْإِسْتِذْلَالَ بِهَذَا الْحَدِيثِ ^(١) عَلَى أَنَّ لِكُلِّ
شَيْءٍ رَأْسًا، فَرَأْسُ الْأَمْرِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ الْإِسْلَامُ.

[٤] لِأَنَّهُ لَا يَقُومُ إِلَّا بِهَا؛ وَلِهَذَا كَانَ الْقَوْلُ الرَّاجِحُ كُفْرَ تَارِكِ الصَّلَاةِ، وَأَنَّهُ
لَيْسَ لَهُ الْإِسْلَامُ.

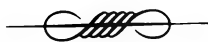
[٥] أَيُّ: أَعْلَاهُ وَأَكْمَلُهُ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَصْلَحَ
نَفْسَهُ، حَاوَلَ إِصْلَاحَ غَيْرِهِ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ لِيَقُومَ الْإِسْلَامُ، وَلِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ
هِيَ الْعُلْيَا، فَمَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَصَارَ ذِرْوَةُ
السَّنَامِ؛ لِأَنَّ بِهِ عُلوَّ الْإِسْلَامِ عَلَى غَيْرِهِ.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢٣١)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ^[١].

[١] خَتَمَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- رِسَالَتَهُ هَذِهِ بِرَدِّ الْعِلْمِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَبِهَذَا انْتَهَتْ الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا، فَسَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُثِيبَ مُؤَلَّفَهَا أَحْسَنَ ثَوَابٍ، وَأَنْ يَجْعَلَ لَنَا نَصِيبًا مِنْ أَجْرِهَا وَثَوَابِهَا، وَأَنْ يَجْمَعَنَا وَإِيَّاهُ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ.



فهرس الأحاديث والآثار

الصفحة

الحديث

- أَخْرَجَ مَنْ عِنْدَكَ ١٢٩
- إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ ٩٣
- إِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ٦٢
- إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ الْمَلَائِكَةُ ٩٣
- أَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فِي غَزْوَةِ الْحَنْدَقِ لِيَعْرِفَ خَبَرَهُمْ ... ١٣٦
- أَعْظَمُ الذَّنْبِ أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ ٤١
- أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ٦٣
- أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَحْدُ وَأَحَادِرُ ٦٣
- أَعُوذُ بِعِظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي ٦٣
- أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ٦٣
- أَعُوذُ بِوَجْهِكَ ٦٣
- إِنَّ اللَّهَ يَدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ ١٠٠
- أَنَّ الْمَرْءَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ١٣٤
- أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ إِلَى آدَمَ لِيَسْفَعَ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُ لَهُمْ، وَيَقُولُ: ااتُوا نُوحًا ٩٥
- أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ إِلَى نُوحٍ، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَوَّلُ رَسُولٍ ١٥١
- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ عَلَى صِفَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا ٩٠
- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رُفِعَ لَهُ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فِي السَّمَاءِ ٩٠
- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَخَوَّلُهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ ١١٨

- ٦٤ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ سَرَقَتْ، فَأَتَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ فَعَازَتْ بِأَمِّ سَلَمَةَ
- ١٤١ إِنَّ أَمَّنَ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ
- ٥٢ أَنَّ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ
- ٤٤ أَنَّ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ
- ١٣٤ أَنَّ مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُمْ
- ١٠١ أَنَّ مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ
- ١٣٩ أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهَرِ الْمُشْرِكِينَ
- ٢٣ أَنْفُذْ عَلَى رَسُولِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ
- ٩٦ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنْسَى كَمَا تَنْسُونَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي
- ٦٨ إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ
- ٦٧ أُولُوا وَلَوْ بِشَاةٍ
- ٧٩ الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
- ١٥٦ بَلْ إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، وَأَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ
- ١٣٥ بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً
- ٧٠ بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ
- ١٢٤ بَيْنَمَا هُوَ نَائِمٌ فِي الْحِجْرِ فِي الْكَعْبَةِ أَنَاهُ آتٍ، فَشَقَّ مَا بَيْنَ ثَغْرِهِ وَنَحْرِهِ
- خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَعْضِ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ، فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَدَّبانِ فِي قُبُورِهِمَا
- ١٠٨ الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ
- ٥٤ سَمِعَ جَبْرِ بْنَ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ سُورَةَ الطُّورِ
- ٨١ سَمِعَ جَبْرِ بْنَ مُطْعِمٍ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ سُورَةَ الطُّورِ
- ٣٠

- صَلَّى النَّاسُ عَلَيْهِ أَرْسَالًا بِدُونِ إِمَامٍ ١٤٢
- عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ١١٥
- عَلَى رِسْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ١٤١
- فَكُلُّ مُيسَّرٍ لَهَا خُلِقَ لَهُ ١١٣
- فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافِنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسَمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ١٠٣
- فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيُلْحَقْ بِإِبِلِهِ ٦٤
- كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ١١١
- كُفِّنَ بِلَالٌ أَنْوَابَ بَيْضِ سُحُولِيَّةٍ، لَيْسَ فِيهَا قَمِيصٌ وَلَا عِمَامَةٌ ١٤٢
- كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى ٣٣
- كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ فَهُوَ أَتَرُ ١٧
- لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكْرَاتٍ ١٤٢
- لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا، مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِثُهُمَا ١٢٩
- لَقَدْ مَهَنَّا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ بِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ، أَوْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقْلٍ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ ١٤٤
- اللَّهُمَّ ارْنِي الْحَقَّ حَقًّا وَارْزُقْنِي اتِّبَاعَهُ، وَارْنِي الْبَاطِلَ بَاطِلًا وَارْزُقْنِي اجْتِنَابَهُ ١٣٨
- اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٢٥
- اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ ٦٥
- اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا ٨٢
- اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى ١٤٢
- مَا تَرَكَ النَّبِيُّ ﷺ طَائِرًا يُقْلَبُ جَنَاحِيهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا ١٤٣
- مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبْوَاهُ يَهُودَانِهِ ٨٠
- مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا قَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ أَوْ الْجَنَّةِ ١١٣

- مَنْ تَسَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفُهُ وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ ٦٤
- مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَهُوَ مِثْلُهُ ١٣٩
- مَنْ دَعَا إِلَى الْهُدَى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ ٢٤
- مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ ٢٤
- مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ٦٦
- مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ ٣٥، ٤١
- مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ ٧٨
- مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدَاً دَخَلَ النَّارَ ٤١
- مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعه ٦٨
- هَذَا جَزِيلٌ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ ٧٠
- هَذَا جَزِيلٌ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ ٩١
- وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَأْيِهِ فَتَحْمِلْهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ ١١٨
- وَكَلَّ اللَّهُ عَلَيَّ بَنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي هَدْيِهِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِجُلُودِهَا
- وَجَلَالِهَا ٥٨
- وَكَلَّ اللَّهُ فِي إِبْطَاتِ الْحُدُودِ وَإِقَامَتِهَا ٥٨
- وَكَلَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّدَقَةِ عُمَالًا ٥٨
- يُبْعَثُ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكِتَابِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ ٣١
- يُخَسِّرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرْلًا ١٠٠
- يَعُودُ عَائِدٌ بِالْبَيْتِ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْتُ ٦٤
- يُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ ١٠٤



فهرس الفوائد

الفائدة

الصفحة

- ١٧..... إعرابُ البَسْملة
- ١٨..... مَرَاتِبُ الإِذْرَاكِ سِتَّةٌ
- ١٩..... العِلْمُ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: ضُرُورِيٌّ وَنَظَرِيٌّ
- الصَّبْرُ: حَبْسُ النَّفْسِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَحَبْسُهَا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَحَبْسُهَا عَنِ
 ٢٤..... التَّسَخُّطِ مِنْ أَقْدَارِ اللَّهِ
- ٢٥..... الصَّبْرُ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٍ
- ٢٦..... قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- : جِهَادُ النَّفْسِ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ
- ٢٧..... سُورَةُ الْعَصْرِ كَافِيَةٌ لِلْخَلْقِ فِي الْحَثِّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِدِينِ اللَّهِ
- ٢٨..... العِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ
- ٢٩..... دَلِيلٌ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا سَمْعِيٌّ وَعَقْلِيٌّ
- مُؤَالَاةٌ مِنْ حَادِّ اللَّهِ وَمُدَارَاتُهُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ
 وَرَسُولِهِ ضَعِيفٌ
- ٣٦.....
- ٣٧..... الْحَنِيفِيَّةُ: هِيَ الْمِلَّةُ الْمَائِلَةُ عَنِ الشُّرْكِ
- ٣٧..... الإِخْلَاصُ هُوَ التَّنْقِيَةُ، وَالْمُرَادُ بِهِ أَنْ يَقْصِدَ الْمَرْءُ بِعِبَادَتِهِ وَجْهَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
- ٣٨..... الْعِبَادَةُ نَوْعَانِ
- ٣٩..... أَنْوَاعُ التَّوْحِيدِ ثَلَاثَةٌ
- ٤٢..... الشُّرْكُ نَوْعَانِ: شُرْكٌ أَكْبَرُ، وَشُرْكٌ أَصْغَرُ

- ٤٢.....الأُصُولُ جَمْعُ أَصْلٍ، وَهُوَ مَا يُبْنَى عَلَيْهِ غَيْرُهُ
- ٤٣.....مَعْرِفَةُ اللَّهِ تَكُونُ بِأَسْبَابٍ
- ٤٤.....مَعْنَى كَوْنِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ صَالِحًا لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَأُمَّةٍ
- ٤٦.....الْعَالَمُ كُلُّ مَنْ سِوَى اللَّهِ
- ٤٧.....آيَاتُ اللَّهِ تَعَالَى نَوَعَانٍ: كَوْنِيَّةٌ وَشَرْعِيَّةٌ
- ٥٣.....مَنْ دَعَا غَيْرَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِشَيْءٍ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ
- ٥٥.....الدُّعَاءُ نَوَعَانٍ: دُعَاءُ مَسْأَلَةٍ وَدُعَاءُ عِبَادَةٍ
- ٥٥.....الْخَوْفُ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ
- ٥٦.....الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يَكُونُ مُحْمُودًا، وَيَكُونُ غَيْرَ مُحْمُودٍ
- ٥٦.....الرَّجَاءُ الْمُتَضَمِّنُ لِلذَّلِّ وَالْخُضُوعِ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ
- التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى: الْإِعْتِمَادُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى كِفَايَةً وَحَسْبًا فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ
- ٥٧.....
- ٥٧.....التَّوَكُّلُ أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ
- ٥٨.....الرَّغْبَةُ: مَحَبَّةُ الْوُصُولِ إِلَى الشَّيْءِ الْمَحْبُوبِ
- ٥٨.....الرَّهْبَةُ: الْخَوْفُ الْمُثْمِرُ لِلْهَرَبِ مِنَ الْخَوْفِ
- ٥٨.....الْخُشُوعُ: الذَّلُّ وَالنَّطَامُنُ لِعَظَمَةِ اللَّهِ
- ٥٩.....الْخَشْيَةُ: هِيَ الْخَوْفُ الْمَبْنِي عَلَى الْعِلْمِ بِعَظَمَةِ مَنْ يَخْشَاهُ
- ٦٠.....الْإِنَابَةُ: الرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ بِالْقِيَامِ بِطَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ
- الإِسْلَامُ الشَّرْعِيُّ، وَهُوَ الْإِسْتِسْلَامُ لِأَحْكَامِ اللَّهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِسْلَامَ لِلَّهِ
- ٦٠.....تَعَالَى نَوَعَانٍ

- أَنْوَاعُ الاسْتِغَاةِ ٦٠
- أَنْوَاعُ الاسْتِغَاةِ ٦٢
- أَقْسَامُ الاسْتِغَاةِ ٦٥
- الدَّبْحُ إِزْهَاقُ الرُّوحِ بِإِرَاقَةِ الدِّمِّ عَلَى وَجْهِ مَخْصُوصٍ وَيَقَعُ عَلَى وُجُوهِ ٦٦
- النَّذْرُ يُطْلَقُ عَلَى الْعِبَادَاتِ الْمَفْرُوضَةِ عُمُومًا، وَيُطْلَقُ عَلَى النَّذْرِ الْخَاصِّ ٦٨
- الإِسْلَامُ هُوَ الْإِسْتِسْلَامُ لِلَّهِ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِنْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبِرَاءَةُ مِنَ الشُّرْكِ وَأَهْلِهِ ٦٩
- الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ، بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَهِيَ: الْإِسْلَامُ، وَالْإِيمَانُ، وَالْإِحْسَانُ ٧٠
- مَنْقِبَةُ عَظِيمَةٍ لِأَهْلِ الْعِلْمِ ٧١
- ﴿بَرَاءٌ﴾ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ بِالْبَرَاءَةِ، وَهِيَ أَبْلَغُ مِنْ بَرِيءٍ ٧٣
- أَهَمِّيَّةُ الصِّيَامِ ٧٦
- الْبِضْعُ بِكَسْرِ الْبَاءِ: مِنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى التَّسْعَةِ ٧٩
- الشُّبْعَةُ: الْجُزْءُ مِنَ الشَّيْءِ ٧٩
- الْحَيَاءُ: صِفَةٌ أَنْفَعَالِيَّةٌ عِنْدَ الْحَجَلِ، وَتَحْجِزُ الْمَرْءَ عَنْ فِعْلٍ مَا يُخَالِفُ الْمُرُوءَةَ ٧٩
- الْجَمْعُ بَيْنَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِضَعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً وَأَنَّ الْإِيمَانَ أَرْكَائُهُ سِتَّةٌ ٧٩
- الْإِيمَانُ بِاللَّهِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ ٨٠
- أَدَلَّةُ الْحَسِّ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ ٨٢
- مَذْهَبُ الْمَعْطَلَةِ وَالْمُشَبَّهَةِ فِي الصِّفَاتِ ٨٨
- ثَمَرَاتُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ٨٨

- ٩١ قَدْ يَتَحَوَّلُ الْمَلِكُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى هَيْئَةٍ رَجُلٍ
- ٩٢ ثَمَرَاتُ الْإِيمَانِ بِالْمَلَائِكَةِ
- ٩٢ إنْكَارُ قَوْمٍ مِنَ الزَّائِعِينَ كَوْنِ الْمَلَائِكَةِ أَجْسَامًا
- ٩٤ الْإِيمَانُ بِالْكِتَابِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ
- ٩٤ ثَمَرَاتُ الْإِيمَانِ بِالْكِتَابِ
- ٩٧ الْإِيمَانُ بِالرُّسُلِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ
- ٩٨ ثَمَرَاتُ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ
- ٩٩ الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ
- ١٠٤ ثَمَرَاتُ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ
- ١١٠ الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ
- ١١٢ الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ لَا يُنَافِي أَنْ يَكُونَ لِلْعَبْدِ مَشِيئَةٌ فِي أَعْمَالِهِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ
- ١١٢ الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ لَا يَمْنَحُ الْعَبْدَ حُجَّةً عَلَى مَا تَرَكَ مِنَ الْوَاجِبَاتِ أَوْ فَعَلَ مِنَ الْمَعَاصِي
- ١١٥ ثَمَرَاتُ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ
- ١١٦ ضَلَّ فِي الْقَدَرِ طَائِفَتَانِ
- ١١٩ الْعِبَادَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ: غَايَةُ الْحُبِّ، وَغَايَةُ الدُّلِّ
- ١٢٢ مَعْرِفَةُ النَّبِيِّ ﷺ تَتَضَمَّنُ خَمْسَةَ أُمُورٍ
- ١٢٣ الْفَرْقُ بَيْنَ الرُّسُولِ وَالنَّبِيِّ
- ١٣٢ حُكْمُ السَّفَرِ إِلَى بِلَادِ الْكُفْرِ
- ١٣٣ الْإِقَامَةُ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ شَرْطَيْنِ أَاسَاسِيَيْنِ
- ١٣٥ تَنْقَسِمُ الْإِقَامَةُ فِي دَارِ الْكُفَارِ إِلَى أَقْسَامٍ

- ١٤٧ إِقْنَاعُ الْمُنْكَرِينَ لِلْبَعَثِ
- ١٥٥ الْغَيْبُ مَا غَابَ عَنِ الْإِنْسَانِ، وَهُوَ نَوْعَانِ: وَاقِعٌ، وَمُسْتَقْبَلٌ
- ١٥٥ الْحُكْمُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ
- ١٥٨ لَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ
- ١٦٠ مَسْأَلَةُ الْحُكْمِ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْمَسَائِلِ الْكُبْرَى



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تقديم.....	٥
نبذة مختصرة عن فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين.....	٧
البَسْمَلَةُ مَعْنَاهَا وَإِعْرَابُهَا.....	١٥
مَرَاتِبُ الإِذْرَاكِ.....	١٦
يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ.....	١٧
العِلْمُ.....	١٧
العَمَلُ.....	٢٠
الدَّعْوَةُ.....	٢٠
الصَّبْرُ.....	٢٣
يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ تَعَلُّمُ ثَلَاثِ مَسَائِلَ.....	٢٧
دَلِيلُ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا سَمْعِي وَعَقْلِي.....	٢٧
الْوَلَاءُ وَالْبَرَاءُ.....	٣٤
الْحَنِيفِيَّةُ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ هِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ.....	٣٥
بَيَانُ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا.....	٣٦
أَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ التَّوْحِيدُ.....	٣٧
أَنْوَاعُ التَّوْحِيدِ.....	٣٧

- أَعْظَمُ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ الشِّرْكَ ٣٩
- الشِّرْكَ نَوْعَانِ ٤٠
- الأَصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتَهَا ٤٠
- الأَصْلُ الْأَوَّلُ مَعْرِفَةُ اللَّهِ ٤١
- أَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا ٥٠
- الدُّعَاءُ ٥٢
- الْحَقُوفُ ٥٣
- الرَّجَاءُ ٥٤
- التَّوَكُّلُ ٥٥
- الرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ وَالْحُشُوعُ ٥٦
- الْحَشْيَةُ ٥٧
- الْإِنَابَةُ ٥٨
- الِاسْتِعَانَةُ ٥٨
- الِاسْتِعَاذَةُ ٦٠
- الِاسْتِغَاثَةُ ٦٣
- الدَّبْحُ ٦٤
- النَّذْرُ ٦٥
- الأَصْلُ الثَّانِي مَعْرِفَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالْأَدِلَّةِ ٦٧
- مَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) ٦٩
- مَعْنَى شَهَادَةِ (أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ) ٧٣

٧٧	الإيمانُ لغةٌ وشرعاً
٧٨	الإيمانُ باللهِ يتضمَّنُ أربعَ أمورٍ
٨٦	المعطلة
٨٦	المشبهة
٨٧	ثمراتُ الإيمانِ باللهِ تعالى
٨٨	الإيمانُ بالملائكة
٩٠	ثمراتُ الإيمانِ بالملائكة
٩٢	الإيمانُ بالكتب
٩٢	ثمراتُ الإيمانِ بالكتب
٩٣	الإيمانُ بالرُّسل
٩٦	ثمراتُ الإيمانِ بالرُّسل
٩٧	الإيمانُ باليومِ الآخر
١٠٢	ثمراتُ الإيمانِ باليومِ الآخر
١٠٢	الرَّدُّ على مُنكري البعث
١٠٥	الرَّدُّ على مُنكري عذابِ القبر
١٠٨	الإيمانُ بالقدر
١١٣	ثمراتُ الإيمانِ بالقدر
١١٤	الجبرية والقدرية
١١٥	الإحسان
١٢٠	الأصل الثالث معرفة نبيكم محمد ﷺ

- الإسراء والمعراج ١٢٢
- الهجرة ١٢٦
- (تَيْمَّةٌ) حُكْمُ السَّفَرِ إِلَى بِلَادِ الْكُفْرِ وَالْإِقَامَةِ فِيهِ ١٣٠
- وفاة الرسول ﷺ ١٣٩
- البعث وأدلته ١٤٣
- أَرْسَلَ اللَّهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ١٤٧
- طَاعَةُ الْأُمَرَاءِ وَأَحْوَالِ النَّاسِ مَعَ حُكَّامِهِمْ ١٥١
- الطَّوَاعِيَةُ وَرُؤُوسَاؤُهُمْ ١٥١
- مَسْأَلَةُ الْحُكْمِ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ١٥٨
- فهرس الأحاديث والآثار ١٦١
- فهرس الفوائد ١٦٥
- فهرس الموضوعات ١٧١

